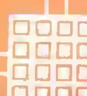
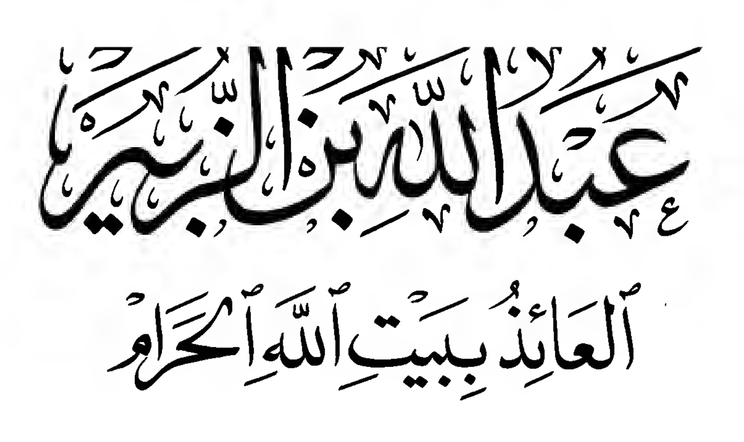
علام المسلمين
٥٩



تأليف
ماجد لحام



دار القلم
دمشق



تأليف
ماجد لحام

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣


عبد الله بن الزبير
العائذ ببيت الله الحرام

هـــذا الرَّجُـــل

«أَهُوَ هُوَ ؟ لَيَمْنَعَنَّ البيت أو ليموتنَّ دونه».

رسول الله ﷺ

«من كانت لي عليه طاعة فليطع عبد الله بن الزبير».

عثمان رضي الله عنه

«أنت أشبه الناس بأبي بكر».

«أبيض من آل أبي عتيقِ   أحبّه كما أحبُّ ريقي».

أبوه الزبير ـ رضي الله عنهما

«ولدته بقباء، ثمّ أتيت رسول الله ﷺ، فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثمّ تَفَلَ في فيه، فكان أوّل ما دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثمّ حنّكه بتمرة، ثم دعا له وبرّك عليه».

أمه أسماء ـ رضي الله عنهما

«أما والله لقد كنتَ صوّاماً قوّاماً وصولاً للرحم».

«انظروا إلى هؤلاء، ولقد كَبَّر المسلمون فرحاً بولادته، وهؤلاء يكبرون فرحاً بقتله».

ابن عمر ـ رضي الله عنهما

«مرحباً بابن عمة رسول الله ﷺ، وابن حواري رسول الله ﷺ».

«وأمّا الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإن أَمْكَنَتْهُ فرصة وثب، فذاك ابن الزبير».

معاوية ـ رضي الله عنه

«ما كان بابٌ من العبادة يعجز عنه الناس إلاّ تكلّفه عبد الله بن الزبير، ولقد جاء سيل طبق البيت فجعل ابن الزبير يطوف سباحةً».

مجاهد

«إنّ أوّل ما فصح به عبد الله بن الزبير وهو صغير: السيف السيف، فكان لا يضعه من فيه».

هشام بن عروة

«ركع ابن الزبير يوماً ركعة، فقرأت البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وما رفع رأسه».

ابن يناق المكي

«إني لأجد في كتاب الله المنزل أنّ ابن الزبير فارس الخلفاء».

نواف البكائي

«ما رأيت ابن الزبير يعطي رجلاً كلمةً قط لرغبة ولا لرهبة سلطان ولا غيره».

وهب بن كيسان

«شجاع من بيت شجاعة، ولكنه لا علم له بالحرب، ومعه مَنْ يخالفه ومعي من ينصح لي».

عبد الملك بن مروان

«عبد الله صحابي جليل، كان أول شيء دخل بطنه ريق رسول الله ﷺ، نشأ عند خالته عائشة في بيت النبوة، فحفظ عن رسول الله ﷺ وروىٰ عنه».

السيوطي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله الذي ارتضى الإسلام لنا ديناً، وأنزل على نبيه كتاباً مبيناً. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الرسول الأمين، الذي بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، وربى في مدرسة النبوة صحابة كراماً تخرجوا من دار الأرقم ومسجد الرسول ﷺ، ونذروا نفوسهم لنشر هذا الدين، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من ضحى بماله، ومنهم من ضحى بنفسه ومنهم من ضحى بمقامه واستقراره. فانتشروا في الأرض يجاهدون في سبيل الله، ويبشرون بدين الحق، ويندّدون بالباطل، ويضربون المثل الأعلى بالتضحية والفداء، فكانوا خير أمة أُخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. ونشروا الإسلام من سواحل الأطلسي إلى حدود الصين، في حقبة قصيرة من الزمن، لذلك كان الرسول الكريم ﷺ يفتخر بصحابته، وأوصانا بهم خيراً فقال: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[١].

وسطر المؤرخون والكُتَّاب سير بعض الصحابة في مؤلفاتٍ تحفظ

---

(١) صحيح مسلم ٧: ١٨٨، صحيح البخاري ٣: ١٣٤٣.

أخبارهم وأعمالهم لتكون هدى لمن يريد أن يهتدي. وتراثاً لأجيال التابعين وتابعيهم، تحثهم على الاحتفاظ بمكانتهم بين الأمم، لذلك يجد القارىء في سير هؤلاء متعة وعبرة وعزاً في نسبه وقوميته. ومن خلال مطالعتي أخبار هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم قرأت متفرقات متباينة بحق عبد الله بن الزبير أثارت فضولي، فهو حمام المسجد، وفارس الخلفاء وأعلم الناس بالمناسك وأحسن الناس صلاة وهو أمير المؤمنين، بينما يصفه بعضهم أنه خارج على الدولة، أثار الفتن، وانتهى مقتولاً مصلوباً، فيقول هؤلاء: ذاك جزاء انتهاك حرمة المسجد الحرام. وبحثت عن سيرة كاملة لابن الزبير الذي شدتني تلك الأقوال للتعرف إلى تاريخ حياته وحقيقة أخباره، فلم أعثر على ما يشفي غليلي، وبدأت أبحث عن أخباره في الكتب، وأجمع كل مقولة قرأتها عنه حتى أصبح لدي حصيلة من المعلومات، هي ليست كل شيء، لكنها تلقي ضوءاً منيراً على شخصية صحابي جمع بين السياسة والدين، وخاض غمار الصراع على السلطة في فترة عصيبة، انتقل فيها نظام الحكم من الشورى إلى الوراثة، وانتقلت العاصمة من الحجاز إلى الشام، وانتقل المجتمع من التقشف والزهد إلى الرفاهية والغنى. وعاصر ابن الزبير الصحابة والتابعين واشترك في الفتن التي عانى منها المسلمون في صدر الإسلام كمعركة الجمل، ورفض بيعة يزيد بن معاوية احتجاجاً على النظام الوراثي، وطلب البيعة لنفسه

واعتصم بالبيت الحرام في مكة، مما أدى لحصارها وانتهاك حرمتها ورميها بالمجانيق.

وليس الهدف من هذه الدراسة إدانة أو نقد ابن الزبير أو تبرير أعماله، لأن الحكم على شخص وتقييم أعماله وسلوكه، وحتى يكون الحكم صحيحاً، يجب أن يتفحص الدارس بعمق الشخص الذي يُقيمه، فيتحسس آراءه وأفكاره وأخلاقه وبيئته، ويجب أن يلم بدقائق الأمور والأحداث ومظاهر الحياة لتلك الفترة التي يدرسها سواء من الناحية الاجتماعية أو الخلقية أو الاقتصادية أو السياسية...، ومع ذلك لن تكون الأحكام دقيقة لأن المعايير والمفاهيم تختلف باختلاف العصور. وإذا اختلفت أحكام الخلف من بعده في خلافته فإنه يصعب علينا تصويب حكم بذاته.

وقد فسر ابن خلدون في مقدمته مواقف الصحابة وما وقع بينهم من نزاع وقتال بقوله: «وغاية الخلاف الذي بين الصحابة والتابعين أنه خلاف اجتهادي في مسائل دينية ظنية»[1].

ويبقى الهدف من هذه الدراسة: التعريف بإحدى شخصيات فترة انتهاء الحكم الراشدي، وتأسيس الدولة الأموية، والتعرف على إيجابيات وسلبيات سياسته وسلوكه، ولا بد في بعض المواقف من الدراسة والتحليل والتعليل وربط الأحداث بأسبابها، عسى أن يكون

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١: ٢٦٦.

في ذلك فائدة لمستفيد، وأفضل ما أختم به مقدمتي هذه أن أقول: رضي الله عن صحابة رسول الله ﷺ أجمعين.

ماجد لحام

٨/ ١١/ ١٩٩٣

عصر ابن الزبير

عاش عبد الله بن الزبير في القرن الهجري الأول، القرن الذي ظهرت فيه الدعوة الإسلامية، وتأسست الدولة الجديدة في الجزيرة العربية، وقضت على جبروت الدولتين العُظْمَيَيْن في ذلك الوقت: دولة الفرس ودولة الروم البيزنطيين، وانطلقت جيوش المسلمين في البلاد شرقاً وغرباً ترفع الظلم والاضطهاد عن الشعوب، وتبشر بشريعة سمحاء تدعو إلى الأخوة والسلام، ونبذ الشرك وعبادة الأوثان، فاستجاب الناس لصوت الحق وانتشر الإسلام في كل مكان. ومع الانتصارات الباهرة التي حققها جنود الحقّ على الجبهات الخارجية، اندلعت بعض الحروب الداخلية بسبب الفتن والصراع على السلطة، وذلك نتيجة غموض نظام الحكم في الدولة الجديدة، وظهور أحزاب المعارضة، ويمكن أن نميز في هذا القرن ثلاثة عصور سياسية:

أولاً ـ عصر النبوة:

امتدت هذه الفترة حتى سنة ١١هـ كان محمد ﷺ بين أصحابه يعلمهم الكتاب والحكمة وينظم أمورهم، ووضع أسس ودعائم

الدولة الجديدة ورسم سياستها في عاصمته المدينة. فلما دنا أجله طلب من خليله أبي بكر الصديق أن يؤم الناس بالصلاة، وهذا مؤشر غير مباشر لرأي الرسول ﷺ في شخص الحاكم المقبل، ولم يحدد صراحة من يخلفه في الحكم والإدارة بل ترك للمؤمنين أمرهم شورى بينهم.

ثانياً ـ عصر الخلفاء الراشدين:

حكم في هذه الفترة التي امتدت حتى عام ٤٠ هـ الخلفاء: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، اشتهر كل منهم بورعه وإخلاصه للدين الجديد ومصالح المسلمين، وكان لكل منهم مواقف محمودة في عصر النبوة، وساهموا في تنظيم إدارة الدولة حتى إن عمر بن الخطاب يعتبر المؤسس الإداري للدولة، نظَّم الدواوين ومصَّر الأمصار وحدد الأعطيات، ولكن لم يحدد أحد منهم نظام الحكم أو طريقة اختيار الخليفة، بل اختلفت السبل التي أوصلت كلاً منهم إلى الخلافة، وبقي العامل المشترك بينهم هو الحصول على بيعة المسلمين وقبولهم بالخليفة قبل استلامه السلطة.

بعد وفاة رسول الله ﷺ، اجتمع المهاجرون والأنصار في سقيفة بني ساعدة لانتخاب خلف له، وكثر الجدل بينهم حتى تمت بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بعد أن رشحه عمر بن الخطاب

حسماً للمناقشات والجدل، وحصل أبو بكر رضي الله عنه على البيعة العامة في المسجد. ودام حكم أبي بكر رضي الله عنه سنتين، وعندما شعر بدنو أجله استشار الصحابة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأثنوا عليه. فحافظ أبو بكر رضي الله عنه على مبدأ الشورى، فكتب عهداً بتولية عمر من بعده، فلما توفي أبو بكر رضي الله عنه عام ١٣ هـ بايع الناس بالإجماع عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وامتدت خلافة عمر عشر سنوات ينظم فيها أمور المسلمين والبلاد والعباد، حتى طعنه أبو لؤلؤة الفارسي طعنة مميتة، فشعر عمر بمسؤوليته حتى بعد وفاته، وخاف على الأمة من الفتنة في تحديد الخليفة الجديد، فاختار ستة من الصحابة مات رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم، وقال إنهم من أهل الجنة وهم: عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وطلب منهم أن ينتخبوا أحدهم خليفة للمسلمين، وجعل ابنه عبد الله عضواً استشارياً في المجلس لا صوت له بالانتخاب. ولجأ عمر إلى تشكيل هذا المجلس رغم قناعته بإجماع المسلمين على أحد اثنين عثمان أو علي، لكنه أراد المحافظة على مبدأ الشورى. وبدأت المباحثات بين الأعضاء، وكان طلحة خارج المدينة، وأخرج عبد الرحمن نفسه منها، فانحصرت في أربعة منهم. أما الزبير وسعد فكانا يميلان إلى انتخاب رجل أكثر ليناً وأطرى عوداً بعد حكم عمر فاختارا عثمان، وأكد عبد الرحمن ذلك

بعد أن استطلع سياسة علي وعثمان، وبايع المسلمون عثمان بالخلافة سنة ٢٣ هـ. وكان عثمان متقدماً بالسن سهلاً ليناً متسامحاً مع عماله ومعظمهم من بني أمية، وظهرت في عهده وبسبب سياسته السمحة، طبقة من الأثرياء أصحاب الثروات الضخمة، وطبقة أعياها الفقر والحرمان، فوجه بعض الصحابة النقد لسياسة عثمان، وظهرت المعارضة في بعض الأمصار، واستغل هذه المعارضة بعض المغرضين على رأسهم عبد الله بن سبأ. الذي طاف بالأمصار يحرض الناس على عثمان. ويجعل من الهفوات أخطاءً جساماً، ويحول المعارضة إلى نقمة. واستجاب له بعض الناس. ولما توجه الناقمون والمغرضون من مصر والعراق إلى المدينة، حاصروا الخليفة ثم اقتحموا داره وقتلوه سنة ٣٥ هـ. ولم تتوفر لعثمان فرصةٌ لتحديد خلفه أو إبداء رأيه في طريقة انتخاب وريثه في الحكم، فكان لا بد أن تختلف الأهواء حول الخليفة الجديد. فأهل البصرة يؤيدون الزبير، وأهل الكوفة يؤيدون طلحة، ومعظم أهل مصر والحجاز يفضلون علياً أقوى المرشحين بمجلس الشورى بعد مقتل عثمان، ولكنهم يخشون أن تصبح الخلافة وراثية من بعده. وخوفاً من اتساع الفتنة، وبسبب الظروف غير الطبيعية التي سادت المدينة، وتحت ضغط قتلة عثمان، انتخب الصحابة علياً ليكون الخليفة الرابع بعد رسول الله ﷺ، وكانت بيعة الأكثرية ولم يبايعه عامة المسلمين؛ فكان كثير من الصحابة خارج المدينة لم يعلنوا بيعتهم.

تبدأ أزمة الحكم في هذه الدولة الناشئة ببيعة علي بن أبي طالب، التي لم تحظ بالإجماع فامتنع بعضهم عن البيعة واشتدت المعارضة، وبدأ علي حكمه بعزل ولاة عثمان وتشدد في إعادة الحق إلى نصابه، فاستاء أصحاب المصالح خوفاً على مصالحهم، ورفض معاوية بن أبي سفيان والي دمشق الامتثال لطلب الخليفة بالتخلي عن إمارته، بل طالب الخليفة بالثأر لدم عثمان ومعاقبة قتلته، وبذلك انقسم الناس سياسياً إلى حزبين: حزب عثمان على رأسهم معاوية، وحزب علي. وانسحب الزبير وطلحة من المدينة ليرأسا حملةً ضد الخليفة مطالبين بالثأر لعثمان، وتوجها مع أنصارهما إلى البصرة تصحبهم السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وكان الخليفة جهز جيشاً لتأديب معاوية الخارج على طاعته، فلما علم بأمر طلحة والزبير، توجه إلى البصرة، ووقعت معركة الجمل التي قتل فيها طلحة والزبير، وأقام علي في الكوفة يرقب الوضع في دمشق، فبلغه أن معاوية خرج بجيش نحو العراق فتوجه لقتاله، والتقى الطرفان بمعركة صفين على الفرات، وسفكت دماء كثيرة، ولما شعر معاوية بضعف موقفه، اقترح المفاوضة والتحكيم، وقبل عليٌ حقناً لدماء المسلمين، ولكن جماعة رفضوا التحكيم وخرجوا من جيش علي عُرفوا بالخوارج، وقالوا: لا حكم إلا لله، ولم يحسم التحكيمُ النزاع بين علي ومعاوية، وتآمر بعض الخوارج عليهما، فقتل عبد الرحمن بن ملجم الخليفة في

الكوفة صبيحة ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ، وفشلوا في قتل معاوية، وبذلك انتهى عصر الخلفاء الراشدين.

ثالثاً ـ العصر الأموي:

كان معاوية بن أبي سفيان والياً على بلاد الشام منذ خلافة عمر وأقره عليها عثمان، فلما كانت خلافة علي، طالب معاوية بعقاب قتلة عثمان ولم يعترف بخلافة علي حتى يقتص من القتلة. ولم تضع معركة صفين أو لجنة التحكيم حداً للصراع على السلطة، فلما قتل عليٌّ كان في البلاد ثلاثة أحزاب هي: الخوارج ينادون بمبدأ الشورى والانتخاب العام لتعيين الخليفة، وكان تجمُّعهم في العراق، وأنصار علي يعتقدون أنه وأولاده أحق بالخلافة، فبايع أهل الكوفة الحسن بن علي خليفة للمسلمين. وحزب الأمويين على رأسهم معاوية بن أبي سفيان في بلاد الشام، يطلب الخلافة لنفسه، فلجأ إلى سياسة اللين والمداهنة، وتفاوض مع الحسن الذي شعر بضعف موقفه أمام والي الشام لقلة أنصاره، ولم يكن له دهاء وخبرة معاوية، فتنازل عن الخلافة على أن يكون أمر المسلمين بعد موت معاوية شورى بينهم. ودخل معاوية الكوفة فأخذ البيعة بحضور الحسن والحسين، ثم بايعه جمهور المسلمين البيعة العامة عدا الخوارج.

انفرد معاوية بالسلطة فكان الخليفة الأول بعد الخلفاء الراشدين،

وهو مؤسس الدولة الأموية، اشتهر بالحكمة والدهاء، وكان يتقن سياسة الشدة واللين في مواطنها، فدانت له البلاد عدا الخوارج الذين ترك تأديبهم وملاحقتهم لوالي العراق زياد بن أبيه. وفي أواخر حكمه، زين المغيرة بن شعبة لمعاوية أخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد من بعده. فوقع ذلك في نفسه وسعىَ لبيعة ابنه سعياً، وطلب من عماله أخذ البيعة في الأمصار، وسار بنفسه إلى الحجاز وأرغم بعض الرافضين على البيعة، وبذلك أصبح نظام الحكم وراثياً في بني أمية حتى سنة ١٣٢ هـ.

كان عبد الله بن الزبير والحسين بن علي ممن رفضوا البيعة بولاية العهد ليزيد وأكرهوا عليها، فلما بويع يزيد بالخلافة بعد وفاة والده، انسحب عبد الله والحسين إلى مكة ورفضا البيعة، ثم توجه الحسين إلى العراق وهو زعيم الشيعة، وكان استشهاده في وقعة كربلاء التي دبرها عبيد الله بن زياد والي العراق، عندها طمع ابن الزبير بالسلطة، وبدأ يدعو لنفسه سراً ليجمع الأنصار حوله. ولما وصل من دمشق نبأ وفاة يزيد، ثم خبر تنازل معاوية الثاني عن الخلافة ليترك أمر المسلمين شورى بينهم، وبعد أن بقي منصب الخلافة شاغراً ثلاثة أشهر بسبب اختلاف الأمويين فيما بينهم بدافع العصبية بين القيسيين واليمنيين، عندها أعلن ابن الزبير خلافته في مكة، وبايعته الأمصار عدا بعض المناطق في بلاد الشام. وكادت الخلافة تنتقل إلى ابن الزبير كاملة دون منازع، لولا اجتماع كلمة الأمويين على بيعة مروان بن الحكم، عدا

الضحاك بن قيس الفهري الذي قضى عليه مروان بمعركة مرج راهط قرب دمشق، وتفرغ لاستعادة سلطته في الأقاليم والقضاء على ابن الزبير حتى لا يبقى في الدولة خليفتان، فاحتل مصر ولكنه توفي بعد سنة من خلافته، وورثه ابنه عبد الملك المؤسس الثاني للدولة الأموية بعد معاوية، ويتميز عهده بصراع عنيف بين الأمويين والزبيريين، فتوجه بنفسه إلى العراق وقضى على مصعب بن الزبير هناك، وجنَّد الجيوش لحرب الخوارج، ثم أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي إلى الحجاز للقضاء على عبد الله بن الزبير في مكة، وتم له ذلك بعد أن حاصر الحجاج مكة ورماها بالمجانيق، فانفض الناس من حول ابن الزبير ولقي مصرعه سنة ٧٣ هـ.

* * *

مولده ونشأته

تختلف الروايات في تاريخ مولد عبد الله بن الزبير، فيذكر الواقدي أنه ولد في السنة الثانية من مقدم رسول الله ﷺ المدينة في شوال. ويذكر ابن سعد عن الواقدي أن ابن الزبير ولد بعد الهجرة بعشرين شهراً بالمدينة[1]. والأرجح أن ولادته كانت في العام الأول للهجرة بشهادة أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت: فخرجت وأنا مُلِّم، فأتيت المدينة فنزلت بقباء فولدته بقباء، ثم أتيت رسول الله ﷺ فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه، فكان أول ما دخل في جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بتمرة ثم دعا له وبرك عليه[2]. وسماه باسم جده لأمه، وأمر أن يؤذن في أذنيه بالصلاة، فأذن جده أبو بكر في أذنيه.

كان عبد الله أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة، وعندما سمع المسلمون بمولده كبروا تكبيرة واحدة، حتى ارتجت المدينة تكبيراً، وفرحوا بولادته كثيراً، لأن اليهود حين قدم رسول الله ﷺ وصحبه

---

(١) الطبري: ٢: ٤٠١.

(٢) صحيح مسلم ٦: ١٧٥، البخاري ٣: ١٤٢٢.

المدينة قالت: أخّذوهم[1] حتى لا يكون لهم نسل، فكان مولد عبد الله بشرى للمسلمين ببطلان سحر اليهود.

وزعموا أن رسول الله ﷺ لما نظر في وجهه قال: أهُوَ هو؟ لَيَمنعنَّ البيت أو ليموتنَّ دونه، فقيل لرسول الله ﷺ إن أسماء تركت رضاع عبد الله بن الزبير لما سمعتك تقول: أهُوَ هو؟ فقال: أرضعيه ولو بماء عينيك، ليثٌ بين ذئاب، ذئاب عليها ثياب، ليمنعنَّ الحرم أو ليقتلنَّ به.

ويروى أن أبا بكر الصديق طاف بابن الزبير في خرقة وهو صبي مولود، وإذا صح الخبر فيحتمل أن يكون المراد بقوله طاف به، أي مشى به من مكان إلى مكان في المدينة، ليشتهر أمر ميلاده على خلاف ما زعمت اليهود[2].

وكان الزبير يحب ولده عبد الله كثيراً فيحمله ويقبله وهو صغير ويقول[3]:

أبيـض مـن آل أبي عتيـقِ ... أُحبُّـه كمـا أحـب ريقـي

---

(١) التأخيذ: نوع من السحر. (لسان العرب).

(٢) ليس المقصود الطواف حول الكعبة لأن مكة عند ولادته كانت دار حرب (ابن عساكر ٣٩٥).

(٣) ابن عساكر، ترجمته ٣٩٨.

نَسَبه وأسرته

نسبه: عبد الله بن الزبير قرشي عريق النسب من جهة أبيه وأمه، ونشأته عالية رفيعة، فنسبته من ناحية أبيه هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خُوَيلد بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي القرشي الأسدي[١]. ونسبه من ناحية أمه هو عبد الله بن أسماء بنت أبي بكر الصديق، فهو من شجرة مباركة لها نسبها النبيل وشهرتها في الإسلام.

أبوه: الزبير بن العوام، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وحواري رسول الله ﷺ وابن عمته، وأحد الأبطال المشاهير في الجزيرة العربية[٢]، وأول من سل سيفه في الإسلام، هاجر إلى الحبشة مع من هاجر لما اشتد أذى قريش على المسلمين، وعندما هاجر إلى المدينة كان عمره ثمان وعشرين سنة، شهد بدراً وأحداً وشارك في وقعة اليرموك فكان أحد أبطالها، وأرسله عمر بن الخطاب على رأس حملة عسكرية

---

(١) الإصابة: ٢: ٣٠٩.

(٢) قيل له مرة وقد ضرب عدوه بسيفه ضربة قسمته نصفين، ما أحدَّ سيفك! فغضب وقال: ليس السيف، ولكن اليد التي ضربت به. (العقد الفريد: ١: ١٢٢).

لدعم جيش عمرو بن العاص في حصار بابليون في مصر، وجعله فيمن يصلح للخلافة من بعده، فسماه قبيل وفاته أحد الصحابة الستة المرشحين للخلافة، وكان الزبير موسراً كثير المتاجر، خلّف أملاكاً بيعت بنحو أربعين مليون درهماً[1]. قتله ابن جرموز غيلة يوم الجمل.

خلف الزبير اثني عشر ولداً منهم: عبد الله، عروة، المنذر، عمرو، مصعب، حمزة، عبيدة، جعفر.

أمه: أسماء ذات النطاقين، كان لها دور في خدمة رسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر لما هاجرا إلى المدينة، فعندما توقفا عند غار ثور، كانت تحمل إليهما الطعام سراً، وأطلق عليها ذات النطاقين لأنها شقت نطاقها قسمين، احتفظت بأحدهما لنفسها، وكانت تربط بالآخر طعام رسول الله ﷺ ووالدها.

---

(١) قال عبد الله بن الزبير: . . . فقتل الزبير ولم يدع ديناراً ولا درهماً إلا أرضين، منها الغابة (أرض شهيرة من عوالي المدينة) وإحدى عشرة داراً بالمدينة ودارين بالبصرة وداراً بالكوفة وداراً بمصر. قال: وإنما كان دينه الذي كان عليه أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه، فيقول الزبير: لا، ولكن هو سلف إني أخشى عليه الضيعة، وما ولي إمارة قط ولا جباية ولا خراجاً ولا شيئاً إلا أن يكون في غزو مع رسول الله ﷺ، أو مع أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم. . . (رياض الصالحين: ١٥٧).

جدته لأبيه: صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، أسلمت وهاجرت.

عمة أبيه: خديجة بنت خويلد، أول زوجات رسول الله ﷺ وأول من آمن به من النساء.

خالته: عائشة بنت أبي بكر الصديق وزوجة رسول الله ﷺ، لم تكن قد رزقت أولاداً فأخذت عبد الله من أختها أسماء ليعيش عندها، فنشأ في بيت النبوة وأصبح كأنه ابن عائشة، حتى كان يقال لها: أم عبد الله[1]. وقد عهدت له بالصلاة بالمسلمين وهم في طريقهم إلى العراق في وقعة الجمل، فصلى وراءه بعض شيوخ قريش وعلى رأسهم طلحة والزبير، وكان لذلك أثر في نفس الشاب عبد الله ونزعته للزعامة.

وكان أحب البشر لعائشة بعد النبي ﷺ وأبي بكر[2].

أسرته: كان لعبد الله عدد من الأولاد منهم: خُبيب وعباد وحمزة وثابت وهاشم، أمهم رَخلة بنت منظور بن زبّان الفزاري[3]، وأبو بكر أمه رَيْطة بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعامر أمه

---

(١) الإصابة: ٤ : ٣٦٠، الأعلام: ٣ : ٤٣.

(٢) البخاري ٣: ١٢٩١.

(٣) يذكر ابن خلكان اسمها خولة (٦ : ٩٩)، كما يرد في العقد الثمين اسمها زَجْلة (٥: ١٥٦).

حَنْتمة بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي. وله عدد من الإناث[١]. وتزوج عائشة بنت عثمان بن عفان بعد أن هلك عنها الحارث بن الحكم بن أبي العاص[٢].

وكان عبد الله يكنى أبو بكر، كناه بذلك رسول الله ﷺ بكنية جده أبي بكر وسماه باسمه[٣]. ودعي أيضاً أبو خبيب بأكبر أولاده.

وممن لعب دوراً هاماً في حياته من إخوته وأولاده:

أخوه مصعب، الذي اشتهر بشجاعته وكان ساعده الأيمن فولاه على العراق، وكان مصعب رجل حرب ولم يكن رجل سياسة فقضى على حركات التمرد هناك ولكنه أخطأ في إدارته[٤]. ولما فشل عبد الملك بإغرائه للتخلي عن أخيه، والانضمام للأمويين شدد الحملات عليه حتى قتله.

أخوه عروة، كان ساعده في الحجاز، ولما تعرض عبد الله للحصار في مكة، قاتل عروة إلى جانبه بكل شجاعة وإخلاص، ولما يئس من النصر طلب من الحجاج الأمان لأخيه، فرفض.

---

(١) يرد في تاريخ الخميس من أولاده: قيس وموسى. (٢/ ٣٠٦).
(٢) أنساب الأشراف ٥: ١٠٦.
(٣) الاستيعاب في أسماء الأصحاب (هامش الإصابة ٢: ٣٠١).
(٤) أساء معاملة أسرى معركة المزار، كما أساء معاملة أسرة المختار فازداد أعداؤه نتيجة سياسته.

أخوه عمرو، كان عاقاً ناصبه العداء، وقاد الجيش الذي أرسله يزيد لقتال عبد الله، فوقع أسيراً بيد أخيه، فاقتص منه وأودعه السجن.

ابنه حمزة، ولّاه العراق فترة وجيزة، وكان إلى جانب والده في قتال الحجاج بمكة، ولكن ما لبث أن ترك والده ولجأ إلى الحجاج.

ابنه خبيب، لجأ مع أخيه حمزة إلى صفوف الحجاج لما اشتد القتال ونفدت المؤن وتفرق الناس عن عبد الله.

ابنه الزبير، أظهر شجاعة كبيرة في القتال مع أبيه، ولما خرج الناس إلى الحجاج يطلبون الأمان، قال عبد الله لابنه: «خذ لنفسك أماناً كما فعل أخواك، فوالله إني لأحب بقاءكم» فأصر على البقاء إلى جانبه وقال: «ما كنت لأرغب بنفسي عنك» فصبر معه حتى قتل.

* * *



صفاته وأخلاقه

حليته: كان عبد الله بن الزبير آدماً نحيفاً ليس بالطويل، معصوباً خفيف اللحم، عارضاه خفيفان، أطلساً خفيف اللحية، ليس في وجهه من الشعر إلا القليل، وكانت لحيته صفراء ما اكتملت حتى بلغ ستين سنة، وكان يقول: «عالجت لحيتي لتكثر فلما بلغت ستين يئست منها». وكان له جُمّة[1] مفروقة طويلة، بين عينيه أثر السجود. وكان الزبير يقول لابنه عبد الله: «أنت أشبه الناس بأبي بكر»[2]. وكان لا ينازع في ثلاث: العبادة والشجاعة والفصاحة.

عبادته: عبد الله صحابي جليل، كان أول شيء دخل بطنه ريق رسول الله ﷺ، نشأ عند خالته عائشة في بيت النبوة، فحفظ عن رسول الله ﷺ وروى عنه ثلاثة وثلاثين حديثاً[3]. كما روى عن أبيه وعمر وعثمان وغيرهم. وروى عنه جماعة من التابعين منهم أخوه عروة وابنه عامر وابن أخيه محمد بن عروة وحفيده مصعب بن ثابت، وابن أبي مليكة التيمي وعباس بن سهل وابن أبي يزيد المكي وابن

---

(١) الجمة: مجتمع شعر الرأس.

(٢) الإصابة ٢: ٣١٠.

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٣٧، العقد الثمين ٥: ١٤١.

شهاب الزهري ووهب بن كيسان. . . وحدّث عبد الله عن نفسه أنه أتى النبي ﷺ وهو يحتجم، فلما فرغ قال: «يا عبد الله اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد، فلما برز عن رسول الله ﷺ، عمد إلى الدم فشربه، فلما رجع، قال: يا عبد الله ما صنعت بالدم ؟ قال: جعلته في أخفى مكان علمت أنه يخفى على الناس، قال: لعلك شربته ؟ قال: نعم، قال: ولما شربت الدم، ويل للناس منك وويل لك من الناس. وكانوا يرون أن القوة التي به، من ذلك الدم»[1].

وعن الزبير: أن رسول الله ﷺ كُلم في غِلمة ترعرعوا، منهم عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن الزبير، وعمر بن أبي سلمة، فقيل: يا رسول الله: «لو بايعتهم فتصيبهم بركتك ويكون لهم ذكر، فأُتي بهم إليه، فكأنهم تكعكعوا، واقتحم عبد الله بن الزبير، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: إنه ابن أبيه. وبايعه، وكان عبد الله ابن سبع سنين»[2].

كان عبد الله يعمل لآخرته، ولا ينسى نصيبه من الدنيا، ولما قارن حنش الصنعاني بينه وبين عبد الملك بن مروان قال: «هو يريد الله وعبد الملك يريد الملك، لذلك كان يميل إلى عبد الله»[3].

---

(١) الإصابة ٢: ٣١٠.

(٢) البداية والنهاية ٨: ٣٣٣، ابن عساكر ٣٩٩.

(٣) تاريخ شمال إفريقيا ٤١.

ويصفه عمر بن قيس بقوله: كنت إذا نظرت إليه في أمر دنياه، قلت هذا رجل لم يرد الله طرفة عين، وإذا نظرت إليه في أمر آخرته، قلت هذا رجل لم يرد الدنيا طرفة عين[1] فكان يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا. وعن ابن قيس أيضاً عن أمه قالت: دخلت على ابن الزبير بيته وهو يصلي، فسقطت حية من السقف على ابنه ثم تطوقت على بطنه وهو نائم، فصاح أهل البيت ولم يزالوا بها حتى قتلوها، وابن الزبير يصلي ما التفت ولا عجل، ثم فرغ بعد ما قتلت الحية، فقال: ما بالكم؟ قالت زوجته: رحمك الله أرأيت أن كنا هنا، يهون عليك ابنك[2].

وعن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه قال: ما كان أحد أعلم بالمناسك من ابن الزبير. وعن عمر بن دينار قال: ما رأيت مصلياً أحسن صلاةً من ابن الزبير. وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود وإذا ركع أطال الركوع. وقال مسلم ابن يناق المكي: ركع ابن الزبير يوماً ركعة، فقرأت البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وما رفع رأسه[3]. وكان إذا سجد يطوّل السجود حتى تنزل العصافير على ظهره لا تحسبه إلا جزعاً[4].

---

(١) حلية الأولياء ١: ٣٣٤.
(٢) تاريخ الخميس ٢: ٣٠٢.
(٣) ابن عساكر ٤٠٩.
(٤) الصفوة ٢: ٣٠٢.

ويروى أن بعضهم رأى ابن الزبير يشرب في صلاته، وهو أول من صفّ رجليه في الصلاة فاقتدى به كثيرٌ من العباد، وكان مجتهداً. وكان قوام الليل صوام النهار، وكان يسمى حمام المسجد[١]. وكان يواصل الصيام سبعاً، يصوم يوم الجمعة ولا يفطر إلا ليلة الجمعة الأخرى، ويصوم في المدينة فلا يفطر إلا في مكة، وكان إذا أفطر أول ما يفطر على لبن لقحة وسمن وصبر. وقال ابن أبي مُلَيكة: كان ابن الزبير يواصل سبعة أيامٍ ويصبح في الثامن وهو أَلْيثُنا. وقال خالد بن عمران: كان ابن الزبير لا يفطر من الشهر إلا ثلاثة أيام، ومكث أربعين سنة لم ينزع ثوبه عن ظهره[٢]. وعن مجاهد قال: ما كان باب من العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلفه عبد الله بن الزبير، ولقد جاء سيل طبّق البيت، فجعل ابن الزبير يطوف سباحة[٣].

كان ابن الزبير أحد الأربعة الذين كلفهم الخليفة عثمان بن عفان بنسخ القرآن[٤]. وحج ابن الزبير بالناس من عام ٦٤ هـ حتى عام ٧٢ هـ،

---

(١) ابن عساكر ٤١٣.

(٢) البداية والنهاية ٨: ٣٣٥.

(٣) ابن عساكر ٤١٧، الكامل ٤: ٢٧.

(٤) بعد أن أحضر عثمان نسخة المصحف المجموع من عند حفصة، أمر كلاً من زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وأرسل عثمان إلى كل أفق بمصحف (الكامل ٣: ٥٦)

أي مدة خلافته. وخطب مرة بالحُجَّاج فقال: يا معشر الحُجَّاج، سلوني فعلينا كان التنزيل ونحن حضرنا التأويل. فقال له رجل من أهل العراق: دخلت في جرابي فأرة أيحل لي قتلها وأنا محرم؟ قال: اقتل الفويسقة، قال: أخبرنا بالشفع والوتر والليالي العشر، قال: العشر، الثمان وعرفة والنحر، والشفع من تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه وهو اليوم[١]. ويُستشهد أحياناً بقراءته لكتاب الله[٢].

شجاعته: هو أحد فرسان قريش وصنديد مغوار لا يشق له غبار اشتهر بشجاعته منذ صغره، يقول هشام بن عروة: إن أول ما فصح به عبد الله بن الزبير وهو صغير، السيف السيف، فكان لا يضعه من فيه، وكان الزبير إذا سمع ذلك منه يقول له: أما والله ليكونَنَّ لك منه يوم ويوم وأيام[٣]. وقيل: إن أول ما علم من همة ابن الزبير أنه كان ذات يوم يلعب مع الصبيان ـ وهو صبي ـ فمر به رجل فصاح عليهم ففروا، ومشى ابن الزبير القهقرى وقال: يا صبيان اجعلوني أميركم وشدوا بنا عليه[٤]. وقيل أنه جيء بلص إلى أبي بكر، وكان قد سرق

---

(١) ابن عساكر ٤٠٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣: ٣٦٢.

(٣) البداية والنهاية ٨: ٣٤٠.

(٤) الكامل ٤: ٢٧.

أكثر من مرة وقطعت قوائمه، فقال أبو بكر: ما أجد لك شيئاً إلا ما قضى فيك رسول الله ﷺ يوم أمر بقتلك فإنه كان أعلم بك، فأمر بقتله أغيلمةً من أبناء الصحابة المهاجرين، فقال ابن الزبير، وكان بينهم، أمِّروني عليكم، فأمَّروه عليهم، فانطلقوا به إلى البقيع فقتلوه[1].
ومر عمر بن الخطاب بابن الزبير وهو صبيٌّ يلعب مع الصبيان، ففروا ووقف، قال عمر: ما لك لم تفر مع أصحابك ؟ فقال: يا أمير المؤمنين لم أُجرم فأخافك ولم تكن الطريق ضيقة فأُوسع لك.

وكان عبد الله من المدافعين عن عثمان يوم الدار وجرح يومئذ بضع عشرة جراحة وكان على الراجلة يوم الجمل وجرح يومئذ تسع عشرة جراحة، وقيل بضع وأربعون جراحة، ولم يوجد إلا بين القتلى وبه رمق.

وكان نوافاً البكائي يقول: إني لأجد في كتاب الله المنزل أن ابن الزبير فارس الخلفاء[2].

ومن أخبار شجاعته في المعارك أنه شهد مع ابن أبي سرح قتال البربر، -وكانوا في عشرين ومئة ألف، والمسلمون عشرون ألفاً، فأحاطوا بهم من كل جانب، فما زال عبد الله بن الزبير يحتال حتى ركب في ثلاثين فارساً. وسار نحو ملك البربر وهو منفرد وراء

---

(١) ابن عساكر ٤٠٢.
(٢) البداية والنهاية ٨: ٣٣٣، تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٣٩.

الجيش، وجواريه يظللنه بريش النعام، فساق حتى انتهى إليه والناس يظنون أنه ذاهب برسالة إلى الملك، فلما فهمه الملك ولّى مدبراً، فلحقه عبد الله وقتله واحتز رأسه وجعله في رأس رمح، وكبر وكبر المسلمون وحملوا على البربر فهزموهم[1].

كما تتجلى شجاعته يوم حاصره الحَجَّاج في مكة وقد تجاوز السبعين، وكان الحجاج وزع جنده على أبواب مكة فكان عبد الله يحمل مرة في هذه الناحية، ومرة في هذه الناحية ولكأنه أسد في أجمة، ما أن تُقدم عليه الرجال حتى يعدو في آثارهم حتى يخرجهم وهو يرتجز[2]:

إني إذا أعـرف يـومـي أصبرْ وإنمـا يعـرف يـومـه الحـرْ

وبعد مقتله في مكة، توجه أخوه إلى الخليفة عبد الملك بدمشق وطلب منه أن يعطيه سيف أخيه عبد الله، قال: إنا لا نعرفه بين السيوف، فقال عروة: إذا أحضرت السيوف ميَّزته أنا. فلما أحضرها أخذ منها سيفاً مفلل الحد فقال: هذا سيف أخي، فقال عبد الملك: كنت تعرفه قبل الآن؟ قال: لا، فقال: كيف عرفته؟ قال: يقول النابغة الذبياني[3]:

---

(١) البداية والنهاية ٨: ٣٣٥.
(٢) ابن عساكر ٤٨٣.
(٣) ابن خلكان ٣: ٢٥٧.

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وأورد ابن عساكر في ترجمته أخباراً عن شجاعته وتصديه للجن.

فصاحته: اشتهر ابن الزبير بالفصاحة والبيان، وقد سُئل سعيد بن المسيب عن خطباء قريش في الإسلام، فقال: معاوية وابنه وسعيد وابنه وعبد الله بن الزبير[1]، وكان إذا خطب تجاوبه الجبلان أبو قبيس وزروراء[2]. وكان كثير التمثل بالشعر فينشد عند كل شيء حتى كانوا يرون أنه كان يقول من كثرة ما يتمثل[3]. ويروى أن معاوية أذِن للناس يوماً فدخلوا عليه، فاحتفل المجلس وهو على سريره، فأجال بصره فيهم، فقال: أنشدوني لقدماء العرب ثلاثة أبيات جامعة من أجمع ما قالته العرب، ثم قال: يا أبا خبيب، فقال: مهيم، قال: أنشد ذلك، فقال: نعم يا أمير المؤمنين بثلاثمئة ألف، كل بيت بمئة ألف، قال: نعم إن ساوت، قال: أنت بالخيار وأنت واف كاف، فأنشده للأفوه الأزديّ:

بلوتُ الناسَ قرناً بعد قرن فلم أر غير ختَّال وقالِ

فقال معاوية: صدق.

ولم أر في الخطوب أشد وقعاً وكيداً من معاداة الرجال

---

(1) ابن عساكر ٤١٨.

(2) البداية والنهاية ٨: ٣٣٥.

(3) ابن عساكر ٤٣٤.

فقال معاوية: صدق.

وذقت مرارة الأشياء طراً فما شيء أمرُّ من سؤالِ

فقال معاوية: صدق.

ثم قال معاوية: هيه يا أبا خبيب؟ قال: إلى ههنا انتهى. قال: فدعا معاوية بثلاثين عبداً على عنق كل واحد منهم بدرة، وهي عشرة آلاف درهم، فمروا بين يدي ابن الزبير حتى انتهوا إلى داره[1].

ويصفه بعضهم بالبخل، ويرد في الكتب أخبار بذلك، والأصح أنه كان معتدلاً في عطائه ونفقاته عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]. لأن عاصمة ملكه مدينة مكة، تقع في واد غير ذي زرع، وبلاد الحجاز خيراتها قليلة، فكان يميل إلى الاعتدال في عطائه.

ومما يرد في بخله أن أفحمت السنة نابغة بني جعدة، أي أخرجته من البادية إلى الحضر لشدتها، فدخل على ابن الزبير في المسجد الحرام ثم أنشده:

حكيت لنا الصديق لما وليتنا وعثمان والفاروق فارتاح مُعدِمُ

وسوّيت بين الناس في الحق فاستوى فعاد صباحاً حالكُ اللون أسْحَمُ

---

(١) البداية والنهاية ٨: ٣٣٧، ابن عساكر ٤٣٩، تهذيب تاريخ دمشق ٧: ٤٠٨.

أتاك أبو ليلى يجوب به الدُّجى دجى الليل جوابُ الفَلاةِ عَثَمْثَمُ[1]
لتَجبر منه جانباً ذَعْذعت[2] به صروف الليالي والزمان المُصَمَّمُ

فقال له ابن الزبير: هون عليك أبا ليلى فإن الشعر أهون وسائلك عندنا، أما صفوة أموالنا فلآل الزبير، وأما عفوته[3]، فإن بني أسد تَشْغَلها عنك، ولكن لك في مال الله حقان؛ حق برؤيتك رسول الله ﷺ، وحق لِشركَتك أهل الإسلام في فيئهم، ثم أدخله دار النعم فأعطاه قلائص تسعاً وجملاً رحيلاً، وأوقر له الركاب بُرّاً وتمراً وثياباً، فجعل النابغة يستعجل ويأكل الحب صِرفاً، فقال ابن الزبير: ويح أبي ليلى لقد بلغ به الجهد، فقال النابغة: أشهد لسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما وليت قريش فعدلت، واسترحمت فرحمت، وحدثت فصدقت، ووعدت خيراً فأنجزت، فأنا والنبيون فُرّاط لقاصفين»[4].

وسمع معاوية رجلاً وهو يقول[5]:

ابـن رقـاش مـاجـد سَمَيـدَعُ يأبى فيعطي عن يد أو يمنع

فقال معاوية: ذاك منا، ذاك عبد الله بن الزبير.

---

(١) العثمثم: الجمل القوي.
(٢) ذعذعت: أذهبت ماله وفرقته.
(٣) عفوته: ما يفضل من المال.
(٤) ابن عساكر ٤٣١.
(٥) ابن عساكر ٤٣٤.

وعندما أرسل يزيد بن معاوية إلى عبد الله بن جعفر مالاً جليلاً هدية له، فَرَّقَه في أهل المدينة ولم يُدخل منزله منه شيئاً، فبلغ ذلك عبد الله بن الزبير، فقال: «إن عبد الله بن جعفر لمن المسرفين، فلما علم جعفر بذلك قال[1]:

بخيل يرى في الجود عاراً وإنما على المرء عار أن يضِنَّ ويبخلا

وكان عبد الله يريد أن يأخذ على يد عائشة رضي الله عنها لما علم أنها تسرف في الصدقات، وهي خالته وزوج رسول الله ﷺ[2]. وكان ابن عباس يُبخِّل ابن الزبير ويعاتبه في بخله، ويقول: قال رسول الله ﷺ: «ليس بالمؤمن الذي يبيت شبعان وجاره إلى جنبه جائع»[3]. ويعزو بعضهم إخفاق ابن الزبير بنيل الخلافة كاملة، بأنه كان ضيق العطاء بخيلاً حسوداً كثير الخلاف، بينما كان معاصروه من بني أمية يجزلون العطاء ليكسبوا المؤيدين والأنصار[4].

وقال الشاعر في ذلك[5]:

رأيت أبا بكر وربك غالب على أمره يبغي الخلافة بالتمر

---

(١) ابن عساكر ٥٦.
(٢) صحيح البخاري ٥: ٢٢٥٥.
(٣) البداية والنهاية ٨: ٣٣٩.
(٤) الإصابة ٢: ٣٠٢ هامش.
(٥) أنساب الأشراف ٥: ١٩٤.

وأما في معاملته فكان يتشبه بعمر بن الخطاب، واشتهر بعفته ونزاهته وجرأته في إحقاق الحق، ومما يروى في ذلك:

قال المدائني: كان عبد الله بن الزبير يشمر إزاره ويحمل الدرّة يتشبه بعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال أبو حرة[1]:

لم نَرَ من سيرة الخطاب عندكُمُ غير الإزار وغير الدرة الخَلَق

وفي عفته يقول هشام بن عروة: لما قتل عمر محا الزبير نفسه من الديوان، فلما قتل عثمان محا ابن الزبير نفسه من الديوان[2].

ومن جرأته في الحق أنه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ـ وكان الوليد يومئذ أميراً على المدينة لابن عمه معاوية بن أبي سفيان ـ منازعة في مال كان بينهما بذي المروة، فكان الوليد تحامل على الحسين في حقه، لسلطانه، فقال له الحسين: «أحلف بالله لتنصفني من حقي، أو لآخذن سيفي ثم لأقومَنَّ في مسجد رسول الله ﷺ ثم لأدعون بحلف الفضول» فقال عبد الله بن الزبير وهو عند الوليد حين قال الحسين ما قال: «وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً . . .»[3].

---

(١) أنساب الأشراف ٥: ١٨٩.
(٢) ابن عساكر ٤٢٦.
(٣) سيرة ابن هشام ١: ١٢٤.

وكان بعض الناس يُحكّم ابن الزبير في فض المنازعات لرجاحة عقله واستقامته، فقد طلب الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما من معاوية بن أبي سفيان في نزاع بينهما في أرض، فقال الحسين لمعاوية: «إما أن تشتري حقي أو ترده علي، أو تجعل بيني وبينك ابن عمر وابن الزبير حكماً»[1].

ويروى أن النّوار بنت أعين المجاشعية، بنت عم الفرزدق، أوكلت إليه أمرها عندما طلبها رجل من بني أمية للزواج، فما كان من الفرزدق إلا أنه أعلن زواجه بها دون إذنها، فرفضت وطلبت الطلاق، ولم تجد شهوداً ضده، لأن الناس تخاف هجاءه، فقدمت مكة ونزلت على ابنة منظور زوجة ابن الزبير، واستشفعت بها إلى زوجها عبد الله، بينما جاء الفرزدق ونزل على أولاد ابن الزبير وعاونوه عند أبيهم، فلما وقف ابن الزبير إلى جانب زوجته والنوار، هجاه الفرزدق، ولما اجتمع ابن الزبير مرة بالفرزدق وقد حمل عليه لهجائه له، قبض على عنقه فكاد يدقها، ثم قال للنوار: «إن شئت قتلته وإن شئت سيرته إلى بلاد العدو»، فلما كرهت ذلك، حبب لها الزواج من ابن عمها فرضيت به خيراً، وساق الفرزدق إليها مهرها ودخل بها[2].

---

(١) أسواق العرب ١٤١.

(٢) ابن خلكان ٦ : ٩٩.

وكان يعتد برأيه ولا ينقاد لرغبة أو رهبة، ويقول وهب بن كيسان في ذلك: «ما رأيت ابن الزبير يعطي رجلاً كلمة قط لرغبة ولا لرهبة سلطان ولا غيره»[1].

وكان بعضهم يلقب ابن الزبير بالضَّبَّابي، لأنه في صغره جلس على جحر ضب ففسا حتى خرج الضب، فكان يعير في ذلك[2].

* * *

---

(١) ابن عساكر ٤٢٥.

(٢) أنساب الأشراف ٥: ٢٠١.

جهـــاده

لا نجد في كتب السيرة أي خبر عن اشتراك عبد الله بن الزبير في الحروب والغزوات رغم حضوره مع والده غزوة الأحزاب وفتح مكة، فقد كان في مقتبل العمر ولم يتجاوز عمره عند وفاة الرسول ﷺ إحدى عشرة سنة. وكان الرسول ﷺ لا يجيز أحداً من الغلمان لم يبلغ الخامسة عشرة، وأول ما يرد من أخبار تتعلق بخروجه مع الجيوش، مرافقته لوالده في تحرير بلاد الشام وحضوره معركة اليرموك ١٤ هـ، إذ يقول عبد الله: «كنت مع أبي عام اليرموك، فلما تعبى المسلمون للقتال، لبس الزبير لأمته ثم جلس على فرسه ثم قال لموليين له: احبسا عبد الله بن الزبير معكما في الرحل فإنه غلام صغير[١]، وبعد انتهاء القتال شارك عبد الله في علاج الجرحى بعد انهزام المشركين»[٢].

وإن لم يشارك في القتال لصغر سنه، فإنه أَلِفَ القتالَ والعراك وصليل السيوف منذ نشأته، مما زاد في شجاعته وخبرته العسكرية. وحضر مؤتمر الجابية، وسمع خطبة الخليفة عمر بن الخطاب هناك.

---

(١) الطبري ٣: ٥٧١.

(٢) ابن عساكر ٣٨١.

وعندما أرسل الخليفة عمر بن الخطاب الزبيرَ على رأس حملة ليردف جيش عمرو بن العاص عندما توجه لتحرير مصر، كان عبد الله وأخوه محمد مع والدهما شهوداً على كتاب الأمان الذي أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر[1].

ولم تظهر شهرة وبراعة ابن الزبير في الحروب إلا في الحملة التي أرسلها الخليفة عثمان إلى تونس، ففي عام ٢٦ هـ تأخرت أخبار الحملة التي أرسلها الخليفة عثمان بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح لتحرير شمال إفريقيا، فأرسل عبدَ الله بن الزبير على رأس مدد يأتيه بخبر الحملة التي تعرف بحملة العبادلة[2]. فلما وصل ابن الزبير عام ٢٧ هـ إلى أطراف مدينة سبيطلة في تونس، وجد المسلمين في قتال مرير مع الروم، وعلى رأس هؤلاء حاكمهم جرجير (جريجوريوس). وقد استمر القتال عدة أيام دون نتائج حاسمة لأحد الطرفين لأن المعارك كانت تستمر يومياً من الصباح إلى الظهر، ويعود كل من الطرفين إلى معسكره حتى اليوم التالي، فاقترح ابن الزبير على عبد الله بن سعد أن يقسم جيش المسلمين إلى قسمين، يخرج أحدهما للقتال، ويمكث ابن الزبير مع القسم الآخر في كمين متأهبين للقتال

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٩٨.

(٢) العبادلة هم: عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص.

بعد أن يعود القسم الأول ليفاجئوا الروم الذين أنهكهم القتال، فيحملوا عليهم حملة رجل واحد، وهكذا كان. ففي اليوم التالي، وبعد عودة القسم الأول، من جيش المسلمين من أرض المعركة، انطلق ابن الزبير مع من كان مستريحاً من رجال المسلمين، وقتلوا من الروم عدداً كبيراً، ولحقت الهزيمة بباقي الجيش، وقتل ابن الزبير قائد الروم جرجير، وبذلك تحقق النصر للمسلمين في هذه المعركة، فأرسله ابن سعد ليحمل البشرى للخليفة عثمان[١].

سار عبد الله سريعاً في أقل من ثلاثة أسابيع يحمل البشرى إلى الخليفة عثمان في المدينة، وقص عليه كيف كانت الوقعة، فأعجب عثمان ما سمع منه، فقال له: «يا بني أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أنا أهيب لك مني لهم، ووقف إلى جانب المنبر خطيباً، وكان أول من خطب إلى جانب المنبر، وقال[٢]:

«الحمد لله الذي ألف بين قلوبنا وجعلنا متحابين بعد البغضة، الذي لا يجحد نعماؤه ولا يزول ملكه. له الحمد كما حمد نفسه وكما هو أهله. انتخب محمداً ﷺ فاختاره بعلمه، وائتمنه على وحيه، واختار له من الناس أعواناً، قذف في قلوبهم تصديقه ومحبته، فآمنوا به، وعزروه، ووقروه، وجاهدوا في الله حق جهاده،

---

(١) الكامل ٣: ٤٥، ابن خلدون ٢: ٥٧٤.

(٢) العقد الفريد ٤: ١٧٠.

فاستشهد الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح، والبيع الرابح، وبقي منهم من بقي لا تأخذهم في الله لومة لائم. أيها الناس، رحمكم الله، إنا خرجنا للوجه الذي علمتم؛ فكنا مع وال حافظ حَفِظ وصية أمير المؤمنين، وكان يسير بنا الأبْرَدين، ويخفض بنا في الظهائر، ويتخذ الليل جملاً، يعجل الرحلة من المنزل الجدب، ويطيل اللبث في المنزل الخصب. فلم نزل على أحسن حالة نعرفها من ربنا حتى انتهينا إلى إفريقية، فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ورغاء الإبل وقعقعة السلاح؛ فأقمنا أياماً نُجِمُّ كُراعنا (نريح خيلنا) ونصلح سلاحنا، ثم دعوناهم إلى الإسلام والدخول فيه فأبعدوا منه، فسألناهم الجزية عن صغار أو الصلح؛ فكانت هذه أبعد. فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة نتأتاهم وتختلف رسلنا إليهم. فلما يئس منهم قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، وذكر فضل الجهاد وما لصاحبه إذا صبر واحتسب، ثم نهضنا إلى عدونا وقاتلناهم أشد القتال يومنا ذلك، وصبر فيه الفريقان، فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة. واستشهد الله فيهم رجالاً من المسلمين، فبتنا، وباتوا، وللمسلمين دوي بالقرآن كدوي النحل. وبات المشركون في خمورهم وملاعبهم. فلما أصبحنا، أخذنا مصافنا التي كنا عليها بالأمس، فزحف بعضنا على بعض؛ فأفرغ الله علينا صبره، وأنزل علينا نصره. ففتحناها من آخر النهار؛ فأصبنا غنائم كثيرة، وفيئاً واسعاً، بلغ فيه الخمس

خمسمئة ألف. فصفق عليها (أغلق عليها) مروان بن الحكم. فتركت المسلمين قد قرّت أعينهم، وأغناهم النفل، وأنا رسولهم إلى أمير المؤمنين أبشره وإياكم بما فتح الله من البلاد، وأذل من الشرك؛ فاحمدوا الله عباد الله على آلائه، وما أحل بأعدائه من بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين».

وبعد أن عاد عبد الله من الجبهة الغربية عام ٢٧ هـ، يذكر الطبري في أخبار سنة ٣٠ هـ، غزو سعيد بن العاص طبرستان في الجبهة الشرقية، ويورد أسماء بعض الصحابة ممن شاركوا في هذه الغزوة وفيهم عبد الله بن الزبير[١]. كما قدم أصبهان مع الحسين بن علي بن أبي طالب في مخرجهما إلى جرجان غازيين[٢].

ووفد ابن الزبير عام ٤٩ هـ إلى بلاد الشام، بناء على طلب الخليفة معاوية تلبية لدعوة الجهاد، والاشتراك في الحملة التي أرسلها بقيادة ابنه يزيد لغزو القسطنطينية. وكان معه عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عباس. ووصلت الحملة إلى أطراف القسطنطينية، واقتتل المسلمون والروم دون أن يحقق المسلمون النصر في هذه الحملة[٣]. وربما طلب معاوية من ابن الزبير وصحبه الاشتراك في هذه الحملة ليبعدهم عن

---

(١) الطبري ٤: ٢٦٩.
(٢) ذكر أخبار أصبهان ١: ٤٧.
(٣) الكامل ٣: ٢٢٧.

أنصارهم في الحجاز خوفاً من الفتن.

وبذلك نرى عبد الله بن الزبير شارك في حروب الجبهات الثلاث: الشرقية والغربية والشماليـة وأبلى فيها بلاءً حسناً، وكسب خبرة واسعة بالقتال، وأصبح صاحب رأي في المعارك. وسنذكر دوره في وقعة الجمل في حينه.



الدفاع عن عثمان بن عفّان

اشتدت النقمة بين العامة والخاصة على سياسة الخليفة الراشدي الثالث عثمان رضي الله عنه، وعلى بعض تصرفاته، واستغل المغرضون هذه النقمة ليصعّدوها إلى فتنة عمياء وثورة عارمة. واتفق الثوار أن يفدوا من الأمصار إلى المدينة في موسم حج عام ٣٥ هـ، ويضعوا أحداً لحكم الخليفة، فجاء نحو ألفي مقاتل من مصر والبصرة والكوفة وحاصروا دار الخليفة، يريدون قتله لأسباب اختلقوها. ورغم أن الصحابة كانوا ينتقدون سياسة عثمان إلا أنهم لم يقروا التهجم عليه وقتله، فتجمع عدد من الصحابة وأبنائهم عند باب دار الخليفة، للدفاع عنه ورد الثوار عن المدينة، وكان فيهم عبد الله بن الزبير.

عندما أطل عثمان من باب داره ورأى كثرة المتجمهرين، طلب من الصحابة أن يعودوا إلى منازلهم خوفاً عليهم وأصر على ذلك، فانسحب علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وغيرهم، بعد أن طلبوا من أبنائهم البقاء للدفاع عن الخليفة، فأدخلهم عثمان داره وأرتج بابه، وكان عدد المدافعين نحو سبعمئة رجل، ولما اجتمع هؤلاء بالخليفة قال عبد الله بن الزبير لعثمان:

قاتلهم، فوالله لقد أحل الله لك قتالهم. فقال عثمان: «لا والله لا أقاتلهم أبداً» وجعل ابن الزبير آمراً على من في الدار، وقال لهم: «من كانت لي عليه طاعة فليطع عبد الله بن الزبير»[1].

كتب الخليفة كتاباً يدافع به عن نفسه، ويتبرأ مما نسب إليه من التهم، وأراد أن يُطلع المتجمهرين عليه، فأمر عبد الله أن يقرأه على الناس، فلما طلع ابن الزبير من الدار وأراد قراءة الكتاب، لم يدَعوه يفعل ذلك ورموه بالنبل، فلما تَرَّسه أصحابه بالترسة، قرأه بأعلى صوته ولم ينتزع حتى فرغ منه[2]. ثم أحرق المهاجمون باب الدار واقتحموها فتصدى لهم المدافعون بقوة وكان بينهم قتال، وأدرك الخليفة أنها نهايته، وأن كتابه لم يجد نفعاً، فخرج إلى عبد الله بن الزبير وأمره أن يصير إلى أبيه بوصيته التي كتبها استعداداً للموت، وأمره أن يأتي أهل الدار، أي المدافعين معه فيأمرهم بالانصراف إلى منازلهم، فخرجوا وكان عبد الله آخرهم، ودخل الثوار على الخليفة، وهو صائم يقرأ القرآن فقتلوه، ولم يرعوا مكانته الدينية والسياسية، وسنه المتقدمة. وكان ابن الزبير عندما يحدث الناس عن مقتل الخليفة يفخر بأن عثمان رضي الله عنه عهد إليه بوصيته. وكان ابن الزبير يقول على منبر مكة وهو خليفة: «والله لقد استخلفني أمير المؤمنين عثمان على الدار

---

(١) أنساب الأشراف ٤: ٥٦٤.

(٢) أنساب الأشراف ٥: ٩٠.

فكنت أنا الذي أقاتل بهم، لقد كنت أخرج من الكتيبة وأباشر القتال بنفسي فجرحت بضعة عشر جرحاً، وإني لأضع اليوم يدي على بعض تلك الجراحات التي جرحت مع عثمان، فأرجو أن تكون خير أعمالي»[1]. وبعد مقتل عثمان كان ابن الزبير ممن انتدبوا لدفنه.

قتل عثمان عام ٣٥ هـ، أي كان عبد الله قد اكتملت رجولته وهو على رأس العصبة المسؤولة عن حمايته، فحزَّ في نفسه مقتل الخليفة، وكان لذلك أثر في موقفه يوم وقعة الجمل، وكان حماسه كبيراً للثأر لعثمان. وقد حفظ آل عثمان لعبد الله موقفه المشرف يوم الدار، فقد سُئل بكير بن عمرو بن عثمان بن عفان يوماً، لماذا زوجت ابنتك زبيريّاً (وهو عامر بن حمزة بن عبد الله بن الزبير). ولم تزوجها أحد فتيان بني الحكم بن أبي العاص وهم بنوعمك؟ فقال: «إن يد عبد الله بن الزبير عندنا يوم الدار ما علمت»[2].



(١) ابن عساكر، ترجمة عبد الله بن الزبير ٤٢٦.
(٢) أنساب الأشراف ٤: ٦٢٠.



وَقعَـــةُ الجَـمَل

بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه عام ٣٥ هـ، تجددت الآمال عند بعض أعضاء مجلس الشورى بالوصول إلى الخلافة، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أقوى المرشحين، فقد انحصرت الخلافة سابقاً بينه وبين عثمان، وكان بعد مقتل عثمان أكثر أتباعاً وأشياعاً من منافسيه طلحة والزبير رضي الله عنهما، حتى إن بعض أنصارهما من أهل البصرة والكوفة انضموا إلى أنصار علي. وخوفاً من تجدد المنازعات على السلطة وحتى لا تضيع الفرصة من الثوار الذين أرادوا تعيين الخليفة قبل أن يعودوا إلى بلادهم، توجه هؤلاء الثوار إلى أهل المدينة، وقالوا لهم: «دونكم يا أهل المدينة فقد أجلناكم يومين، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً كثيراً»[١].

فأسرعوا إلى بيعة علي بالخلافة، ولما تأخر طلحة والزبير بالبيعة أرغمهما الثوار على ذلك. وصور الطبري موقف أنصار كل من أعضاء مجلس الشورى بقوله: «وأهل الكوفة والبصرة شامتون

---

(١) الطبري ٤: ٤٣٤.

بصاحبيهم، وأهل مصر فرحون بما اجتمع عليه أهل المدينة، وقد خشع أهل الكوفة والبصرة أن صاروا أتباعاً لأهل مصر وحشوة منهم وازدادوا بذلك على طلحة والزبير غيظاً»[1].

أراد طلحة والزبير أن يعوضا عن فشلهما، ويبتعدا عن المدينة وصخبها السياسي، فطلب الزبير من علي أن يوليه حكم الكوفة، وطلب منه طلحة أن يوليه حكم البصرة، وكان أملهما أن تزداد هناك قوة ونفوذ كل منهما بين أنصاره، ويصبح وضعهما مثل معاوية في بلاد الشام. لكن علياً أدرك غرض كل منهما في طلبه، فرفض أن يحقق لهما ذلك واحتج أنه يفضل بقاءهما إلى جواره ليستعين بهما ويستشيرهما في تنظيم أمور الدولة، عندها ألح طلحة والزبير على الخليفة بالثأر لعثمان، فاعتذر بأن الوقت غير مناسب، والمدينة في حالة فوضى والثوار يملؤون أرجاءها، ووعد بالضرب على أيدي القتلة عندما يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتحين الفرصة المناسبة. فاتخذ طلحة والزبير من هذا الموقف حجة جديدة على علي عندما رفض طلبيهما. وانتظرا فترة حتى تهدأ النفوس. وعندما انشغل الخليفة بتمرد معاوية في بلاد الشام استأذناه بالخروج إلى مكة لأداء العمرة، فقال لهما: لعلكما تريدان البصرة والشام. فأقسما أنهما لا يريدان غير مكة، وكان قصدهما كسب تأييد السيدة عائشة

---

(١) الطبري ٤: ٤٣٤.

رضي الله عنها، التي كانت في مكة تؤدي فريضة الحج وتأثرت لما علمت بمقتل عثمان، وأقسمت لتطلبن بدمه.

وبانضمام عائشة أم المؤمنين وزوج رسول الله ﷺ وابنة أول الخلفاء الراشدين، بانضمامها إلى طلحة والزبير، ازدادت المعارضة قوة واتخذت الصبغة الدينية إلى جانب الطابع السياسي، وكان شعار هذا التجمع الجديد، الثأر لعثمان بن عفان. وانضم إلى المعارضة في مكة عدد من الصحابة وأبنائهم وفيهم عبد الله بن الزبير، الذي كان أكثر الناس حماساً للقتال والثأر دعماً لوالده في نيل الخلافة، ولأنه شهد بنفسه مقتل الخليفة الراحل.

اختلفت آراء زعماء المعارضة حول المكان الذي يقصدونه لإعلان الثورة على علي، والمطالبة بدم عثمان، وأخيراً أجمعوا أمرهم على التوجه إلى البصرة بعد أن قال لهم عبد الله بن عامر واليها السابق: إن له بها أنصاراً، وكذلك طلحة.

خرج الجميع من مكة يريدون البصرة والحزن يملأ قلوبهم، وكانت عائشة تركب في هودج يحمله جمل يسمى عسكر، فسمي الجمع أصحاب الجمل، ونظر عبد الله بن الزبير إلى البيت الحرام مودعاً ومتحسراً وقال: «ما رأيت مثلك بركة طالب خير ولا هارب من شر»[١].

---

(١) عائشة والسياسة ١٠١.

وفي طريقهم حان وقت الصلاة، فأذن مروان بن الحكم ثم وقف على طلحة والزبير فقال: «على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة؟ فقال عبد الله: على أبي عبد الله، يعني الزبير، وقال محمد بن طلحة: على أبي محمد، يعني طلحة، فأرسلت عائشة إلى مروان وقالت له: أتريد أن تفرق أمرنا؟ ليصل بالناس ابن أختي - تعني عبد الله بن الزبير -»[١].

يبدو من هذا الموقف الصراع الخفي بين زعماء هذه الجبهة، وأن المعارضة لم تكن متماسكة، واتضح الموقف عندما خلا سعيد بن العاص بطلحة والزبير وقال لهما: إن ظفرتما لمن تجعلان الأمر أصدقاني؟ قالا: نجعله لأحدنا، أينا اختاره الناس...[٢] فحصرا الرئاسة في أحدهما فقط، أي أن المعركة المقبلة لن تضع حداً للفتنة ولن تنهي الصراع على السلطة، وهناك أكثر من جهة تطالب بالخلافة.

كان علي يستعد للتوجه إلى دمشق لتأديب معاوية بن أبي سفيان الذي رفض أمر الخليفة بتنحيته عن ولاية بلاد الشام. ولما علم بخروج عائشة وطلحة والزبير من مكة إلى البصرة، تجاهل أمر معاوية واستعد للخروج إلى العراق، لمنع أصحاب الجمل من دخول البلاد

---

(١) الكامل ٣: ١٠٧، عائشة والسياسة ١٠٣، الطبري ٤: ٤٥٥.
(٢) الكامل ٣: ١٠٧.

ذات الأموال والرجال، فيشتد ساعدهم ويزداد خطرهم، ورغم مشورة عدد من أصحابه بعدم مغادرة المدينة، أصر على الخروج إلى الكوفة، وبذلك أصبحت الكوفة المركز الجديد للخلافة الإسلامية، وخسرت بلاد الحجاز هذه المكانة التي كانت لها منذ عهد الرسول ﷺ، مما جعل أهل الحجاز فيما بعد ينضمون إلى ابن الزبير عندما أعلن دعوته، لأنه أعاد لبلاد الحجاز مكانتها السياسية.

لما وصل ركب عائشة إلى ماء الحوأب نبحتهم كلابه، فسألت عائشة: أي ماء هذا؟ قيل لها: ماء الحوأب، فأناخت وقالت: ردوني، وأرادت العودة من حيث أتت، فلما سئلت عن السبب، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه: «ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب، إياك أن تكوني أنت يا حميراء»[1]. فجاءها عبد الله وقال لها: «إن الذي أخبرك أن هذا ماء الحوأب قد كذب، وحلف لها بالله أنها غادرته أول الليل، وأتاها ببينة من الأعراب فشهدوا بذلك». ثم قال الناس: «النجا، النجا، هذا جيش علي بن أبي طالب قد أقبل، فارتحلوا نحو البصرة»[2].

لما وصل أصحاب الجمل إلى البصرة دخلوها، واستولوا على دار الرزق من عثمان بن حنيف والي البصرة واعتقلوه، وكان في رحبتها

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي ١: ٣٩٥.
(٢) الكامل ٣: ١٠٧.

طعام كثير ورزق يرتزقه الناس، فأراد الزبير أن يُرزِقَه لأصحابه خاصة، فقال ابنه عبد الله: إن ارتزق الناس تفرقوا. ولما جاء حُكَيم بن جبلة[1] إلى عبد الله بن الزبير في مدينة الرزق يطلب طعاماً لجماعته، وأن يخلوا سبيل عثمان بن حنيف، أجابه عبد الله: لا نرزقكم من هذا الطعام ولا نخلي سبيل عثمان حتى يخلع علي[2].

لما التقت جيوش طلحة والزبير بجيش الخليفة علي قرب البصرة في مكان يسمى الخريبة عام ٣٦ هـ، خرج علي للقاء خصومه في آخر محاولة للحل السلمي. وقال للزبير فيما قاله وهو يذكره بماضي علاقتهما: «... قد كُنا نعدُّك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك، ابن السوء ففرق بيننا وبينك، وذكَّره بموقف مع رسول الله ﷺ، قال للزبير فيه: لتقاتلنه وأنت له ظالم»[3]. فعزم الزبير على الانسحاب من المعركة، لكن ابنه عبد الله قال له: «جمعت بين هذين الغارين[4] حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب، أحسست رايات ابن أبي طالب وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد؟» قال: «إني حلفت أن لا أقاتله»، وأحفَظَه ما قال له، فقال عبد الله: «كفر عن يمينك

---

(١) حكيم بن جبلة: لص شارك في فتنة مقتل عثمان وأجبر الزبير على بيعة علي (الطبري ٤: ٤٣٥).
(٢) الطبري ٤: ٤٧٥.
(٣) الطبري ٤: ٥٠٩، الكامل ٣: ١٢٢.
(٤) الغارين: الجيشين.

وقاتله» فدعا غلاماً له يدعى مكحولاً فأعتقه، فقال عبد الرحمن بن سليمان التيمي[1]:

لم أر كاليوم أخا أخوان أعجب من يكفر الأيمان

وبذلك يكون لعبد الله دور كبير في استمرار المعركة، عندما ثنى والده عن الانسحاب منها. ورغم الجهود التي بذلها الخليفة لمنع نشوب القتال، فإن رؤوس الفتنة أشعلوها حرباً بين الأطراف، وكان على خيل أصحاب الجمل طلحة، وعلى الرجالة عبد الله بن الزبير الذي أبلى في المعركة بلاءً حسناً، ليدفع القوم عن الجمل الذي احتدم القتال حوله للدفاع عن عائشة، حتى أصبح الجمل كالقنفذ من كثرة النشاب، وجرح عبد الله في هذه المعركة سبعاً وثلاثين جراحة بين طعنة ورمية. وكان يمسك بخطام الجمل لما مرَّ به ابن الأشتر النخعي[2] فتعرض له، ويقول عبد الله في ذكر هذه الواقعة: «لقيت الأشتر النخعي، فما ضربته ضربة إلا ضربني ستاً أو سبعاً، ثم أخذ رجلي وألقاني في الخندق»، وقال: «والله لولا قرابتك من رسول الله ﷺ ما اجتمع منك عضو أبداً»[3]. ولما اعتنق عبد الله

---

(١) الكامل ٣: ١٢٣.
(٢) الأشتر النخعي واسمه مالك بن الحارث وكان في صفوف علي وهو من الأبطال الشجعان المشهورين (الأعلام ٥: ٢٥٩).
(٣) الكامل ٣: ١٢٨.

والأشتر في القتال وسقطا إلى الأرض. لم يستطع الأشتر القيام لأن ابن الزبير احتضنه وجعل ينادي: «اقتلوني ومالكاً، اقتلوا مالكاً معي». فحمل أصحاب عائشة وعلي فخلصوهما ونجا كل حزب بصاحبه. وقد أعطت السيدة عائشة لمن بشرها بسلامة ابن أختها عبد الله لما لاقى الأشتر، عشرة آلاف درهم، ثم ألقى عبد الله بنفسه بين الجرحى لما اشتدت جراحه حتى يبعد عنه الأنظار.

ولما توقف القتال، تشتت أصحاب الجمل في كل مكان وأوى عبد الله بن الزبير إلى دار رجل من الأزد يدعى وزير، وطلب منه أن يذهب إلى أم المؤمنين ويعلمها بمكانه، فأرسلت عائشة محمد بن أبي بكر لإحضاره إليها، وكانت تقيم في دار عبد الله بن خلف في البصرة، وتجمع عندها فئة من أنصارها فيهم عدد من الجرحى وكان عبد الله بينهم. ولما دخل علي بن أبي طالب البصرة بعد المعركة، زار عائشة وجهزها بجهاز جيد وأرسلها ومن معها معززين، فتوجهت إلى مكة ومكثت هناك حتى موسم الحج ثم عادت إلى المدينة.

ويروى أن عبد الله لما عاد من البصرة إلى المدينة، مرَّ بمنازل بني مجاشع من بني تميم ليلاً، فبينما هو يسير ومعه مولى يقال له زيد، إذ سمع صهيل البسام، فرس الزبير، فقال له مولاه: أشهد بالله إنه لصهيل البسام، وكان ابن جرموز قاتل الزبير قد أخذه، فقال له ابن الزبير: ويحك والله إنه لصهيل الأشقر، والله لا أرجع الليلة حتى

آخذه أو تعوقني دونه العوائق. فقال له زيد: أذكرك الله لما تركته وانطلقت، إني أخاف أن تُقتل، والله ما نجوتَ من الموت إلا بما بقي لك من أجلك وقد عاينته عياناً. فقال له عبد الله: اثبت لي مكانك، وهمك ما بينك وبين نصف الليل، فإن جئتك فذاك، وإلا فانطلق وانعني إلى أسماء، ثم ترجل واشتمل بسيفه وصمد لصوت الفرس، فعرض له رجل من الحي في جنح الليل. فضربه ابن الزبير فقتله حتى انتهى إلى الفرس فأخذه من رباطه وجاء به يقوده حتى انتهى إلى مولاه فانطلقا، وقال عبد الله في ذلك[1]:

يذكرني الزبير صهيل طرف ... تناوله ابن جرموز بغدر

فقلت لصاحبي أرود قليلاً ... لأقضي حاجتي ووفاء نذري

فإن أرجع فذاك رجوع منجٍ ... وإلا فانعني أو بح بسري

فجئت أقوده والنجم عالٍ ... وما هي من أبي بكر بنكر

وقيل إن الأشتر لما دخل على عائشة بعد المعركة، سألته: «أنتَ الذي أردت قتل ابن أختي؟ قال: نعم قد أردت ذلك وأراد. وقال[2]:

أعائش لولا أني كنت طاوياً ... ثلاثاً لألفيت ابن أختك هالكاً

---

(١) عائشة والسياسة ٢١٧.

(٢) الكامل ٣: ١٢٨.

غــداة ينـادي والــرجــال تحــوزه   بأضعف صوت «اقتلوني ومالكاً»
فلم يعرفوه إذ دعاهم وعمه   خدب عليه في العجاجة باركاً[1]
فنجـاه منــي أكلــه وشبــابــه   وأني شيــخ لم أكــن متمــاسكــاً

كانت وقعة الجمل قاسية على الجميع، وكان الأشتر يصفها بقوله: «ما رأيت مثل يوم الجمل قط، ما ينهزم منا أحد، وما نحن إلا كالجبل الأسود»[2]. وتأثر ابن الزبير كثيراً لوفاة والده الذي قتل في المعركة على يد ابن جرموز.

يعتبر ابن الزبير المثير الأول لوقوع القتال والمسؤول عن أول معركة حدثت بين جيشين للمسلمين، وعذره أن مقتل عثمان كان له أثر كبير في نفسه مما دفعه إلى السعي وحث الثائرين على المضي إلى البصرة، وأخذ بكل وسيلة ممكنة للوصول إلى الثأر، لأنه كان مسؤولاً عن حماية الخليفة في داره، فبعد أن اتفق طلحة والزبير مع عائشة على التوجه إلى البصرة للثأر، أرادت عائشة أن تنسحب عند ماء الحوأب، لكن عبد الله أثناها عن عزمها ففي انسحابها فشل ذريع للحملة. وفي البصرة وقبيل المعركة أراد الزبير أن ينسحب بعدما سمع كلام علي بن أبي طالب، لكن عبد الله أثاره للبقاء، فكان الزبير مع

---

(١) الخدب: الجمل الشديد الصلب.
(٢) الكامل ٣: ١٢٩، الطبري ٤: ٥١٩.

ندمه الشديد ودخوله المعركة يقول: «مغلوب، مطلوب، يغلبني ابني، ويطلبني ذنبي»[1].

عاد ابن الزبير من البصرة خائباً، فقد خسر والده في المعركة، وامتلأت جسمه بالجراح، لكنه لم ينس أن والده استشهد وهو يقاتل دفاعاً عن مبدأ الشورى، وعن حقه بالخلافة لأنه أحد أعضاء مجلس الشورى، وتولدت عند عبد الله الرغبة في خوض غمار التنافس السياسي والسعي للخلافة.



---

(١) عائشة والسياسة ٢٠٣.



وَقعَة صفين والتحكيم

انتهت وقعة الجمل بمقتل طلحة والزبير، وهما من أعضاء مجلس الشورى الذي حدده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبمقتلهما تخلص الخليفة علي من بعض معارضيه وتفرغ لتأديب معاوية بن أبي سفيان والي دمشق الذي رفض تنفيذ أمر الخليفة بعزله عن بلاد الشام، وأصر على التمسك بولايته والمطالبة بالثأر لعثمان بن عفان، ووصل هذا الصراع أَوْجه في معركة صفين أوائل ذي الحجة عام ٣٦ هـ، حيث اقتتل جيشا معاوية وعلي، وانتهت المعركة بدون حل حاسم واتفق الطرفان على اللجوء للمفاوضات والتحكيم.

اجتمع الحكمان بدومة الجندل في رمضان عام ٣٧ هـ، وكان أبو موسى الأشعري ممثلاً لعلي بن أبي طالب، وعمرو بن العاص ممثلاً لمعاوية، وعندما أبطأت أخبار الحكمين عن معاوية، أرسل إلى رجال قريش من الذين كرهوا أن يعينوه في حربه والتزموا الحياد، يدعوهم لحضور التحكيم بقوله: «أما بعد فإن الحرب قد وضعت أوزارها، وصار هذان الرجلان إلى دومة الجندل، فأقدموا عليهما إن كنتم قد اعتزلتم الحرب فلم تدخلوا فيما دخل فيه الناس، لتشهدوا ما يكون

منهما والسلام»[1]. وكان بين المدعوين عبد الله بن عمر وعبدالله بن الزبير، فذهبوا إلى دومة الجندل وحضروا جانباً من التحكيم[2]. وكان أبو موسى قد اقترح على عمرو بن العاص إسناد الخلافة إلى عبد الله بن عمر، فقال ابن العاص: «إن هذا الأمر لا يصلح له إلا رجل ضرس يأكل ويُطعِم وإن عبد الله ليس هناك». فاغتنمها ابن الزبير فرصة وقال لابن عمر[3]: «اذهب إلى عمرو بن العاص فارشِه، فقال عبد الله بن عمر: لا والله لا أرشو عليها أبداً ما عشت[4]. وكان كلاهما ممن وقّع اتفاق التحكيم وهو لنتائجه كاره».

لم يحسم التحكيم النزاع بين علي ومعاوية، بل رابط كل منهما في عاصمته يتربص بالآخر، وبعد أن أقدم الخوارج على قتل علي في ١٧ رمضان عام ٤٠ هـ، وهم الذين خرجوا من صفوفه ورفضوا مبدأ التحكيم، التف أنصار علي حول ابنه الحسن، ولكن معاوية استطاع

---

(١) الأخبار الطوال ١٩٨.
(٢) تدل هذه الدعوة على أن عبدالله كانت له مكانته عند قومه، وأن معاوية كان حريصاً على حضوره التحكيم، وهو اجتماع مصيري لتحديد الخليفة المقبل.
(٣) الطبري ٥:٦٩، وقعة صفين ٥٤٢.
(٤) يدل هذا الموقف، إن صح خبره، على رأي ابن الزبير في الوصول إلى غايته، إذ يستبيح الرشوة بينما يرفضها ابن عمر.

أن يحصل على تنازل الحسن عن حقه بالخلافة، على أن يعود الأمر شورى بين المسلمين بعد وفاة معاوية. وبذلك انفرد معاوية بالسلطة واستطاع بحكمته ودهائه أن يحتفظ بها مدة حكمه، دون منازع، وأن يورثها لابنه من بعده، وانحصر صراع ابن الزبير على السلطة مع الأمويين.

* * *



ابن الزبير والخلافة الأموية

تأسيس الدولة الأموية:

لم تضع معركة صفين ونتائج التحكيم حداً للنزاع بين خليفة المسلمين علي بن أبي طالب ووالي بلاد الشام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، واستمر معاوية يرسل الحملات إلى أطراف بلاد الحجاز والجزيرة للنيل من سلطة الخليفة، بينما كان علي منشغلاً بمحاربة الخوارج الذين استفحل خطرهم وعاثوا في العراق فساداً. فكان يميل إلى سلم مؤقت مع معاوية ليتخلص من خطر الخوارج الذين يهددون سلطته في العراق. لذلك جرت في مطلع عام ٤٠ هـ مراسلات بين الخليفة ومعاوية انتهت على أن يكون العراق لعلي، ولمعاوية الشام، لا يدخل أحدهما بلد الآخر بغارة[١].

ولم تمض فترة على هذه المهادنة حتى قتل علي في الكوفة بتاريخ ١٧ رمضان عام ٤٠ هـ، على يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي، الذي ضربه بالسيف وقت صلاة الصبح فأصاب جبهته وتوفي بعد يومين دون أن يحدد خلفاً له، فالتف أشياعه بالكوفة حول ابنه الحسن

---

(١) الكامل ٣: ١٩٣.

يبايعونه بالخلافة، ولكن الحسن لم يكن يأمن أنصاره الذين خذلوا أباه من قبل، وكان يفضل الصلح مع معاوية لحقن دماء المسلمين. وكان معاوية مستعداً لقبول كل شروط الحسن، فتنازل الحسن له عن الخلافة في آخر ربيع الأول عام ٤١ هـ على أن تكون له من بعده.

تقبل معاوية بيعة أهل الكوفة، وكان أهل الشام قد بايعوه في مدينة القدس إثر مقتل علي. وبذلك أجمعت الأمة على بيعة معاوية عدا الخوارج، وسمى الناس سنة إحدى وأربعين عام الجماعة، وعاد الحسن وأهله من الكوفة إلى المدينة، كما عاد الخليفة معاوية منها إلى دمشق.

يعود ارتباط معاوية بدمشق إدارياً إلى أيام الخليفة أبي بكر الصديق، حيث وصلها مع الجيش الذي أرسله الصديق بقيادة يزيد بن أبي سفيان لحرب الروم، وبعد وفاة يزيد عين الخليفة عمر بن الخطاب معاوية والياً على بلاد الشام مكان أخيه، وأقره عليها عثمان زمن خلافته، وبعد أن تولى علي الخلافة، أراد تنحية كل ولاة عثمان عن إماراتهم، فرفض معاوية التخلي عن ولايته واعتصم بدمشق، وبعد أن تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية عام الجماعة، عاد معاوية من الكوفة إلى دمشق، وجعلها عاصمة الدولة، وزالت أهمية المدينة المنورة كمركز سياسي منذ أن غادرها علي إلى الكوفة في معركة الجمل، وصدق قول عبد الله بن سلام عندما قال لعلي وهو يغادر

المدينة يريد البصرة: «لا تخرج منها فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً»[1]. وكان نقل العاصمة إلى دمشق من أسباب نقمة أهل الحجاز على معاوية.

سياسة معاوية:

اشتهر معاوية بالدهاء والحكمة، فهو من دهاة العرب المشهورين، واستطاع بحكمته الخروج بالأمة من محنتها في الصراع على السلطة، وأن يأخذ البيعة من معظم المسلمين، وبعد وفاة الحسن نجح معاوية بجعل الخلافة وراثية في عقبه، وتغلب على الصعاب والعقبات ودانت له البلاد، لكنه لم يطمئن لهذه النتائج ولم يسلم بها، بل كان بعيد النظر في تحديد خصومه ليحذرهم، وأصدقائه ليستعين بهم.

كان معاوية يميل أولاً إلى الحلول السلمية مع معارضيه، وكان سخياً يبذل العطاء ليألف القلوب، فازدحم الشعراء على بابه، وكانوا أجهزة إعلام فاعلة. وأرسل القصاص إلى الأمصار، وشجع خطباء المساجد ليلينوا قلوب المسلمين نحو بني أمية، وكان يراوغ مع من يرى أن يأمن شرهم، ويتبع سياسة فرق تسد مع من يخشى إلفتهم، وإذا أعيته الحيلة والمجاملة لجأ إلى البطش والقسوة، لذلك اختلفت معاملته للأمصار حسب ميول أهلها وتكتل الأحزاب فيها.

---

(١) الطبري ٤: ٤٥٥.

الحياة السياسية في عهد معاوية :

تبلورت الحياة السياسية في عهد معاوية بتكتلات ظهرت مع تأسيس الدولة الأموية، وتحولِ نظام الحكم من شورى إلى وراثي، واقتتال المسلمين على السلطة في أكثر من معركة، وانتقال العاصمة من المدينة إلى دمشق فظهرت الأحزاب التالية :

١ـ **الأمويون**: هم أنصار بني أمية الذين يؤيدون البيت الأموي وخلافة معاوية ومعظمهم في بلاد الشام، وكان معاوية يعتمد على أهل الشام كثيراً، وتصدى بهم للخليفة علي بن أبي طالب في وقعة صفين.

٢ـ **الشيعة** : هم أنصار علي بن أبي طالب وآل بيته، ويرون أفضلية علي بالخلافة، فالتفوا حول أولاده من بعده مطالبين بحقهم بالخلافة. وكان معظم هؤلاء يقيمون في العراق، وقليل منهم موزعون بين بلاد الحجاز ومصر.

٣ـ **الخوارج** : كانوا من أنصار علي بن أبي طالب، ثم خرجوا من صفوفه بعد معركة صفين احتجاجاً على قبوله التحكيم، ونادوا بشعار «لا حكم إلا لله»، ويعتبرون الخلافة حقاً لكل مسلم، ويتم تعيين الخليفة بالانتخاب، وكان هؤلاء ضد الحزبين السابقين ويتهمونهم بالكفر، وكانوا متشددين في مبادئهم، ثم تفرعوا إلى فرق عديدة،

واشتهروا بشجاعتهم وجهادهم، لذلك شكلوا خطراً على الدولة والرعية، وكان مكان تجمعهم في العراق.

أما واقع الأقاليم، وسياسة معاوية مع أهالي كل منها، فكانت على النحو التالي:

العراق: بعد تحرير العراق من حكم الفرس، أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ببناء البصرة والكوفة ليقيم فيها جنود المسلمين، ولما جاء الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى العراق للتصدي لأصحاب الجمل طلحة والزبير رضي الله عنهما، جعل الكوفة مركز حكمه، وبقي أنصاره بعد مقتله على ولائهم لأولاده. وكان الخوارج الذين خرجوا من صفوف جيش علي يرابطون في العراق وهم ناقمون على من سواهم من المسلمين، وشهد جنوب العراق في فترة وجيزة معارك بين المسلمين في وقعة الجمل والنهروان، فأصبح العراق في فوضى سياسية والنزعات فيه متعددة متصارعة، لذلك أوصى معاوية قبل وفاته ابنه يزيد وصية جاء فيها: «... وانظر أهل العراق فإن يسألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً، فافعل، فإن عزل عامل أيسر من أن يشهر عليك مئة ألف سيف»[1]. وأمن معاوية خطر الشيعة هناك بتنازل الحسن له عن الخلافة، أما الخوارج الذين لم تُجد معهم وسيلة فقد سلط عليهم أهل الكوفة،

---

(١) الكامل ٣: ٢٥٩.

بقوله لأهل الكوفة عندما أخذ منهم البيعة: «والله لا أمان لكم عندي حتى تكفوهم». فخرج أهل الكوفة فقاتلوهم[1]، ثم جهز معاوية الجيوش لحربهم.

مصر: كان معاوية يرجو أن يملك مصر لوفرة خيراتها وليستعين بخراجها، لكنه كان يهاب أهلها لشدتهم على من كان على رأي عثمان، ومن مصر خرج قتلة الخليفة، فكان لا يأمن جانبهم وهم قريبون منه، وواليها محمد بن أبي بكر الصديق لا يدين له بالولاء بل يكِن له العداء، فأرسل عام ٣٨ هـ جيشاً بقيادة عمرو بن العاص فاستولى عليها، وقتل واليها، وأشرف على إدارتها، وبذلك أحكم معاوية قبضته على مصر قبل أن يصبح خليفة.

بلاد الشام: عاش معاوية مع أهل الشام فترة طويلة، عرف خلالها عاداتهم وسجاياهم، وخبر طباعهم، فاطمأن لهم، واعتمد عليهم، وكانوا القوة التي استعان بها على معارضيه، وتظهر مكانتهم عنده ورأيه فيهم، بالوصية التي تركها لابنه يزيد وجاء فيها: «. . . . وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن رابك من عدوك شيء فانتصر بهم»[2].

---

(١) الكامل ٣: ٢٠٥.

(٢) الكامل ٣: ٢٥٩.

بلاد الحجاز: هي المركز الأول للدعوة والخلافة، ومنها انطلقت الجيوش لتحرير البلاد، ودعوة العباد لشهادة أن لا إله إلا الله، ولكن ما لبثت أن اشتعلت الفتن بعد مقتل الخليفة عثمان، وانتقلت العاصمة خارج الحجاز، وتوقفت مسيرة الجهاد مؤقتاً وعاد الجند إلى بلادهم، فتعددت المشارب والأهواء والميول السياسية. وتبقى لبلاد الحجاز مكانتها وقدسيتها في نظر المسلمين، ففيها قبلتهم وقبر الرسول ﷺ ويحج إليها المسلمون في كل عام، فلا تصلح مع أهلها أي سياسة، وجمعت بينهم نقمة عامة ضد معاوية بسبب:

ـ نقل العاصمة إلى دمشق، مما أضعف أهمية بلاد الحجاز سياسياً، لذلك انضم معظم أهل الحجاز إلى ابن الزبير عندما أظهر دعوته لأنه يريد أن يعيد للبلاد مكانتها واتخذ من مكة المكرمة مركزاً لحكمه.

ـ تدفقت الأموال الطائلة على بلاد الحجاز، نتيجة الفتوحات، وعاد عدد من الصحابة وأبناء الصحابة إلى بلادهم، بسبب المنازعات والحروب الداخلية. فتشكلت طبقة ثرية يريد رجالها أن يلعبوا دوراً في السياسة العامة، وكانوا يجدون في بلاد الشام، حيث مركز الخلافة، منافساً قوياً.

ـ كان عدد من الصحابة في الحجاز ينقمون على الحاكم الجديد في دمشق، لخروجه على العادات العربية وابتعاده عن حياة التقشف وتشبهه بقياصرة الروم، واتخاذه المقصورة ليحتجب عن الناس بعد أن

تعرض لمحاولة اغتيال من قبل الخوارج[1].

وكانت بلاد الحجاز تضم عدداً من أبناء الأمويين الذين اعتمد معاوية عليهم في إدارة شؤون البلاد، لكنه كان يحذرهم في نفس الوقت إما خوفاً من طمعهم ومنافستهم له على السلطة، أو حتى لا يزداد نفوذهم ويتصرفوا حسب أهوائهم، كما فعل بعض عمال الخليفة عثمان في عهده، واتبع معاوية مع عماله في الحجاز سياسة فرق تسد ليضمن عدم اتحادهم ضده، ففي عام ٥٤ هـ عزل معاوية عامله سعيد بن العاص عن المدينة، واستعمل عليها مروان بن الحكم، لأن سعيد رفض تنفيذ أمر معاوية بهدم دار مروان ومصادرة أمواله، وجاء الأمر إلى مروان بهدم دار سعيد، فلما همَّ بذلك عاتبه سعيد وأطلعه على ما كان من أمر معاوية بهدم دار مروان ورفضه لذلك، عندها امتنع مروان عن تنفيذ أمر الخليفة وأدرك الاثنان الهدف من سياسة معاوية، فكتب سعيد إليه يعاتبه بقوله: «العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا من قرابتنا، أنه يضغن بعضنا على بعض فأمير المؤمنين في حلمه وصبره على ما يكره من الأخبثين وعفوه وإدخاله القطيعة بيننا والشحناء»[2]. فكتب إليه معاوية يعتذر من ذلك.

---

(١) بعد فشل الخوارج بقتل معاوية يوم قتل علي، اتخذ معاوية المقصورة في المسجد لتحجبه عن العامة زيادة في الحيطة.

(٢) الكامل ٣: ٢٤٦.

معاوية وابن الزبير:

أدرك الخليفة معاوية أن أخطر المعارضة تكمن في بلاد الحجاز، لوجود عدد كبير من الصحابة وأبناء الصحابة هناك، وفيهم من ينافسه على الخلافة لسبب أو آخر، وعلى رأس هؤلاء الحسين بن علي بن أبي طالب الذي رفض اتفاق أخيه الحسن مع معاوية وتنازله عن الخلافة، وعبدالله بن الزبير الذي لم يكن من أنصار معاوية ولا مقراً بخلافته بل يجد نفسه أحق بها منه. وكان معاوية يحاول أن يوقع بين الحسين وعبدالله ليشغلهما عنه، ومما يروى في ذلك أن الحسين دخل مرة على معاوية في قصره، وكان في حضرته عبد الله بن الزبير، فرحب معاوية بالحسين وأجلسه معه على سريره ثم أشار له على ابن الزبير وقال: «ترى هذا القاعد، فإنه ليدركه الحسد لبني عبد مناف، فقال ابن الزبير لمعاوية: قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله ﷺ، لكن إن شئت أعلمتك فضل الزبير على أبيك أبي سفيان فعلته»[1]؟. وبذلك اعترف عبد الله بفضل الحسين واعتز بنسبه على معاوية.

ولم يكن معاوية يخشى الحسين منذ أن تنازل له الحسن عن الخلافة، ولم ير الحسين سوءاً من معاوية طيلة حياته، بل كان معاوية يجزل له العطاء، وأوصى ابنه يزيد به خيراً حيث جاء في وصيته:

---

(١) ابن عساكر ٧: ٤٤.

«. . . أما الحسين بن علي فهو رجل خفيف، ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه، فإن خرج وظفرت به، فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة، وحقاً عظيماً، وقرابة من محمد رسول الله ﷺ»[1].

أما بالنسبة لعبد الله فعنده يكمن الخطر، وكان معاوية يتخذ منه مواقف متفاوتة، فتارة يود أن يكسبه إلى جانبه بالحسنى، فكان يرحب به ويغدق عليه الأموال ويقول عندما يلقاه: «مرحباً بابن عمة رسول الله ﷺ وابن حواري رسول الله ﷺ، ثم يأمر بمنحه مئة ألف درهم»[2]. وأحياناً يلجأ معاوية للحجة والبرهان عندما يجتمع بعبدالله ليظهر أفضليته بالحكم، أو ليحط من مكانة عبد الله بين الناس، فقال له في أحد المجالس: «تنازعني هذا الأمر كأنك أحق به مني!. فأجابه عبد الله: لِمَ لا أكون أحق به منك يا معاوية، وقد اتبع أبي رسول الله ﷺ على الإيمان، واتبع الناس أباك على الكفر. فقال معاوية له: غلطت يا ابن الزبير، بعث الله ابن عمي نبياً فدعا أباك، فأجابه، فما أنت إلا تابع لي ضالاً كنت أو مهدياً»[3]. وفي أحد المجالس اشتد التفاخر بينهما، فاحتكما إلى أبي جهم بن حذيفة[4]،

---

(١) الكامل ٣: ٢٥٩.

(٢) ابن عساكر ٧: ٣٩٨.

(٣) العقد الفريد ٤: ٨٥، ٩٢.

(٤) أبو الجهم بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبدالله. . . القرشي العدوي، كان من معمري قريش ومن مشيختهم، وهو أحد الأربعة الذين كانت =

وكان حاضراً المجلس، فكان جواب أبي جهم لمعاوية: «نعم أمك هند، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وأسماء خير من هند، وأبوك أبو سفيان، وأبوه الزبير، ومعاذ الله أن يكون أبو سفيان مثل الزبير، وأما الدنيا فلك، وأما الآخرة فله إن شاء الله».

وعندما يختلي به، كان معاوية يفصح عما في نفسه صراحة ويحدد موقفه من ابن الزبير، ومما يروى في ذلك: «أن معاوية كان يسير مرة في طريق مكة إذ نام على راحلته، فلحقه ابن الزبير فقال: أتنام وأنا معك، أما تخاف أن أقتلك؟! قال: لستَ من قتال الملوك، إنما يصيد كل طَير قَدره، إنما أنت يا ابن الزبير ثعلب رواغ...»[1].

ونعود لوصية معاوية إلى ابنه يزيد قبيل وفاته لنعرف رأيه صراحة بابن الزبير فيقول: «...وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً»[2].

أما عبد الله فكان يرى نفسه أحق من معاوية بالخلافة لسبقه باعتناق الإسلام، وأبوه حواري رسول الله ﷺ، بينما أبو سفيان

= قريش تأخذ عنهم النسب (الإصابة في تمييز الصحابة).

(١) ابن عساكر ٧: ٤٤.

(٢) انظر الوصية كاملة في الطبري: ٥: ٣٢٣، الكامل ٣: ٢٥٩، العقد الفريد ٤: ١٥١.

تصدى للمسلمين، وقاد جيوش الكفر ضد الرسول الكريم ﷺ، وأمه أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق، وأم معاوية هند آكلة كبد حمزة عم الرسول ﷺ، ومع ذلك بايع عبد الله معاوية بالخلافة مكرهاً، ولم يطالب بالخلافة لأنه يرى الحسين أحق بها، ولم يخرج على طاعة الخليفة لأن معاوية بيده السلطة، ويملك جيشاً، وأجمعت الأمة على بيعته، ولم يبق حماس لقتال أو نزاع بعد أن سفكت دماء المسلمين في حروب أهلية بمعارك الجمل وصفين والنهروان. ومع ذلك لم يقف ابن الزبير مكتوف الأيدي تجاه الحكم الأموي، بل كان يجمع المعارضة ويتصيد أخطاء الخليفة وعماله ليثير النقمة عليهم بهدوء وسلام، فقد أثار عاصفة من العداء والاحتجاج على معاوية عندما أراد نقل منبر رسول الله ﷺ من المدينة إلى دمشق، لكنه عدل عن رأيه لما استنكر أهل الحجاز ذلك. وكذلك فعل عندما اتخذ معاوية دمشق عاصمة له بدل المدينة، كما استفاد عبد الله من سياسة التفرقة التي اتبعها معاوية مع أعوانه من الأمويين في الحجاز، فكان يثير النفوس ضده.

وكانت له مواقف جريئة مع الأمويين عامة ومعاوية خاصة، فقد تنازع مروان بن الحكم وابن الزبير، وكان هوى معاوية مع مروان، فقال ابن الزبير: «يا أمير المؤمنين إن لك حقاً وطاعة، فأطع الله نطعك، فإنه لا طاعة لك علينا إلا في حق الله عز وجل»[1]،

(١) ابن عساكر ٧: ٤٤١، غريب الحديث ٢: ٤٤١.

ولا تطرق إطراق الأفعوان في أصول السخبر[1]».

ومرة سأل ابن الزبير معاوية شيئاً، فمنعه، فقال: «والله ما أجهل أن ألزم هذه البنية، فلا أشتم لك عرضاً، ولا أقْصِب (أعيب) لك حسباً، ولكن أسدل عمامتي بين يدي ذراعاً، ومن خلفي ذراعاً في طريق أهل الشام، وأذكر سيرة أبي بكر وعمر، فيقول الناس: من هذا؟ فيقولون: ابن حواري رسول الله ﷺ وابن الصديق، فقال معاوية: حسبك بهذا شراً (وردت في البداية والنهاية: شرفاً)، ثم قال: هات حوائجك[2]».

وبلغت الجرأة بعبد الله أن لطم أحد أبناء الخليفة معاوية بحضوره، فقد دخل مرة على معاوية وعنده ابن له، فأومأ معاوية لابنه فلطم ابن الزبير لطمة دوخ منها رأسه، فلما أفاق قال للولد: «ادنُ مني، فدنا منه، فقال له: الطم معاوية، قال: لا أفعل، قال: فلِمَ؟ قال: لأنه أبي، فرفع عبد الله يده فلطمه لطمة دار الصبي على البساط كما تدور الدوامة، فقال له معاوية: تفعل هذا بغلام لم تجب عليه الأحكام؟ قال: رأيته قد عرف ما ينفعه مما يضره، فأحببت أن أُحسن أدبه»[3].

---

(١) الأفعوان: ذكر الأفعى، والسخبر: نوع من الشجر مفرده سخبرة.
(٢) ابن عساكر ٧: ٤٤٠.
(٣) ابن عساكر ٧: ٤٤١، تهذيب تاريخ دمشق ٧: ٤٠٩.

وبقيت العلاقة بين معاوية وابن الزبير ودية يشوبها الترقب والحيطة والحذر، حتى كانت الدعوة لبيعة يزيد بولاية العهد، فاتخذت المعارضة منها موقفاً حازماً واضطر معاوية للتهديد باستخدام القوة.

البيعة ليزيد بولاية العهد:

لغاية في نفسه ولكسب ثقة الخليفة، اقترح والي الكوفة المغيرة بن شعبة، أن يوصي معاوية بولاية العهد من بعده لابنه يزيد حسماً للمنازعات على الحكم، وحتى لا تتكرر الحروب الأهلية ثانية، وقال له: «قد علمتَ ما لقيَت هذه الأمةُ من الفتنة والاختلاف، وفي عنقك الموت، وأنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس في مثل ما وقعوا فيه بعد مقتل عثمان»[1]. فاستحسن معاوية هذا الرأي وأراد أن يتحسس رأي عماله في الأمصار تمهيداً لطلب البيعة رسمياً، فأرسل له والي الكوفة وفداً يؤيد ترشيح يزيد لولاية العهد، بينما رفض والي البصرة زياد بن أبيه الفكرة مبدئياً؛ لأن يزيد غير كفء لهذا المنصب بعد والده فهو يمضي معظم وقته باللهو والصيد، ولن يرضى عنه الناس إلا إذا أقلع عن ميوله وشهواته وأصبحت له سيرة حميدة، وأراد ابن زياد أن يصدق معاوية القول والنصيحة فكتب إليه يشير بالتؤدة وأن لا يعجل.

أما مروان بن الحكم والي المدينة فقد رحب بفكرة ولاية العهد،

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٤٢.

لكنه فوجىء بترشيح يزيد لها، لأنه شاب في مقتبل العمر، وبين الأمويين من هو أفضل منه لهذا المنصب، وربما كان مروان يطمع بالخلافة لنفسه، لذلك كان جواب مروان لمعاوية أن أهل المدينة استنكروا البيعة ليزيد وعلى رأسهم بنو هاشم وعبد الله بن الزبير.

جاء معاوية بنفسه في موسم الحج عام ٥٠هـ ليستطلع الموقف عن كثب، فلما وصل المدينة واستقر في منزله، استدعى عبد الله بن عباس وعبدالله بن جعفر وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير، وحاول إقناعهم بالبيعة لابنه يزيد، فلم يجد قبولاً عند أحد منهم، بل عرض عليه ابن الزبير أن يرشح للخلافة واحداً منهم أو الحسن أو الحسين، فكل منهم أحق بالخلافة منه، وفي ذلك تكلم بقية الحضور. ولما انتهى الجميع، قال معاوية: «قد قلتُ وقلتم، وإنه ذهبت الآباء وبقيت الأبناء، فابني أحب إلي من أبنائهم، مع أن ابني إن قاولتموه وجد مقالاً، وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف، لأنهم أهل رسول الله ﷺ، فلما مضى رسول الله ﷺ، ولّى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة، غير أنهما سارا بسيرة جميلة، ثم رجع الملك إلى عبد مناف، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة، وقد أخرجك الله يا ابن الزبير وأنت يا ابن عمر منها، فأما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله». ثم أمر بالراحلة وأعرض عن

ذكر البيعة ليزيد، ولم يقطع عنهم شيئاً من صلاتهم وأعطياتهم، ثم انصرف راجعاً إلى الشام[١].

أثار معاوية ولاية العهد من جديد عام ٥٦هـ بعد أن هدأت النفوس، وعدل يزيد من سلوكه وسيرته، وكان قد توفي زياد بن أبيه والحسن بن علي بن أبي طالب، فوجد معاوية نفسه في حل من عهده مع الحسن[٢]، فأخذ البيعة ليزيد في بلاد الشام، وأرسل إلى عماله في الأمصار أن يأخذوا البيعة له، وكان عامله على المدينة بعد عزل مروان بن الحكم، هو سعيد بن العاص، فكتب معاوية يأمره بدعوة أهل المدينة للبيعة وأن يكتب إليه بمن سارع ممن لم يسارع، فامتنع معظم أهل المدينة عن الإجابة، وكان ابن الزبير أشد إنكاراً للبيعة. فكتب سعيد إلى معاوية يعلمه برفض الناس البيعة وأن أشد إنكاراً لها عبد الله بن الزبير. وأضاف بقوله: «ولست أقوى عليهم إلا بالخيل والرجال، أو تقدم بنفسك فترى رأيك في ذلك والسلام».

قرأ معاوية كتاب سعيد بن العاص وعزم على التوجه بنفسه إلى الحجاز، لكنه وجد من الأفضل أن يرسل كتباً إلى كل من رؤساء

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٥٠.

(٢) جاء في العهد بين الحسن ومعاوية لما تنازل له عن الخلافة، أن يعمل معاوية بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين، وليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعهده بعهد، بل يكون الأمر شورى بين المسلمين (التاريخ المظفري ١٨٩).

المعارضة. ويأخذ آراءهم خطياً، فكتب إلى سعيد بن العاص يقول: «. . . . وقد كتبتُ إلى رؤسائهم كتباً فسلمها إليهم، وتنجز جواباتها وابعث بها إلي حتى أرى في ذلك رأيي»[1].

وجه معاوية كتبه كلها نثراً إلا كتابه لابن الزبير فقد صاغه شعراً، لعل الشعر أكبر أثراً في النفوس من النثر، أو لأن ابن الزبير اشتهر بالفصاحة والبلاغة وقول الشعر.

وجاء في كتابه لابن الزبير[2]:

رأيت كرام الناس إن كف عنهم ... بحلم رأوا فضلاً لمن قد تحلما
ولا سيما أن كان عفواً بقدره ... فذلك أحرىٰ أن يُجل ويعظما
ولست بذي لوم فتعذر بالذي ... أتاه من الأخلاق من كان ألوما
ولكن غشاً لست تعرف غيره ... وقد غش قبل اليوم إبليس آدمَ
فما غش إلا نفسه في مقاله ... فأصبح ملعوناً وقد كان مكرما
وإني لأخشى أن أنالك بالذي ... أردت فيجزي الله من كان أظلما

فرد عليه ابن الزبير بنفس أسلوبه:

ألا سمع الله الذي أنا عبده ... فأخذ إله الناس من كان أظلما
وأجرا على الله العظيم بحلمه ... وأسرعهم في الموبقات تقحماً

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٥٣.
(٢) الإمامة والسياسة ١: ١٥٤.

أغـرك أن قـالـوا حليـم بعـزة | وليس بذي حلم ولكن تحلما
ولو رمت ما إن قد زعمت وجدتني | هـزبـر عـريـن يترك القِرن أكتمـا
وأقسم لولا بيعة لك لم أكن | لأنقضهـا لم تنـج منـي مسلمـا

فلما اطلع معاوية على كتب المعارضة من أهل المدينة، سار إلى الحجاز بألف فارس، فلما دنا من المدينة استقبله الناس. ولقي كلاً من الحسين وابن الزبير وعبدالله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر[1]، فلم يرحب بهم وأساء معاملتهم وخاصة ابن الزبير، إذ قال له: «لا مرحباً ولا أهلاً خب ضب تلعة، يدخل رأسه ويضرب بذَنَبه ويوشك والله أن يـؤخـذ بـذَنْبـه ويُـدق ظهـره، نحيـاه عنـي، فضرب وجـه راحلته»[2]. ولما دخل المدينة لم يأذن لابن الزبير وصحبه بالدخول عليه، فلما وجدوا منه هذه المعاملة خرجوا إلى مكة وأقاموا بها.

أما معاوية فقد خطب في أهل المدينة وذكر ابنه يزيد فمدحه وأثنى عليه، بينما أشار إلى المعارضين قائلاً: «. . . . وما أظن قوماً بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم، وقد أنذرت إن أغنت النذر»[3].

وكان قد بلغ عائشة أن معاوية يتهدد الحسين وصحبه بالقتل،

---

(١) حسب هذه الرواية تكون وفاة عبد الرحمن بن أبي بكر بعد سنة ٥٣ هـ خلافاً لما تذكره بعض المصادر.
(٢) الكامل ٣: ٢٥١.
(٣) نفس المصدر السابق.

فلما دخل عليها قالت له: بلغني أنك تهددهم بالقتل، فقال: يا أم المؤمنين هم أعز من ذلك، ولكني بايعت ليزيد وبايعه غيرهم، أفترين أن أنقض بيعة قد تمت؟ قالت: فارفق بهم فإنهم يصيرون إلى ما تحب إن شاء الله. قال: أفعل». ولما توجه معاوية للعمرة استقبله أولئك النفر مرة ثانية هناك لعله غير رأيه فيهم، فرحب بهم وأحسن معاملتهم وأجزل عطاءهم، فلما قرب يوم عودته تناجوا فيما بينهم، وقال بعضهم: «لا تُخدعوا فما صنع بكم هذا لحبكم، وما صنعه إلا لما يريد، فأعَدّوا له جواباً واتفقوا على أن يكون المتكلم باسمهم ابن الزبير. فلما أحضرهم معاوية قال: قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم وحملي ما كان منكم، ويزيد أخوكم وابن عمكم، وأردت أن تقدموه باسم الخليفة، وتكونوا أنتم تعزلون وتأمرون وتجبون المال وتقسمونه، لا يعارضكم في شيء من ذلك، فسكتوا. فقال: ألا تجيبون؟ ثم أقبل على ابن الزبير فقال: هات لعمري إنك لخطيبهم، فقال: نعم نخيرك بين ثلاث خصال، قال: اعرضهن، قال: تصنع كما صنع رسول الله ﷺ، أو كما صنع أبو بكر، أو كما صنع عمر. قال معاوية: ما صنعوا؟ قال: قبض رسول الله ﷺ ولم يستخلف أحداً، فارتضى الناس أبا بكر، قال: ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف. قالوا: صدقت، فاصنع كما صنع أبو بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه، فاستخلفه، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر فاجعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم

واحد من ولده ولا من بني أبيه. قال معاوية: هل عندك غير هذا؟، قال: لا، قال: فأنتم؟. قالوا: قولنا قوله، قال: فإني قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر، كنت أخطب فيكم فيقوم إلي القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح، وإني قائم بمقالة، فأقسم بالله لئن رد عليّ أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يبقين رجل إلا على نفسه. ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف، فإن ذهب رجل منهم يرد عليّ كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما. ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، لا يبتز أمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم، وإنهم رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله، فبايع الناس، وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر»[1].

بذلك أخذ معاوية البيعة كرهاً لابنه يزيد من زعماء المعارضة في الحجاز وفيهم عبد الله بن الزبير. ولم يطلب ابن الزبير لنفسه البيعة في عهد يزيد بل التزم بما قطعه على نفسه كرهاً، لكنه كان يجمع الأنصار سراً. ولم يعلن خلافته إلا بعد وفاة يزيد.

* * *

(١) الكامل ٣: ٢٥٢.

خلافة يزيد

وصية معاوية:

استطاع معاوية بن أبي سفيان خلال عشرين عاماً في الخلافة أن يعالج الكثير من المواقف الحادة، وتغلب بما أوتي من حكمة ودهاء على كل الصعاب، فهادن خصومه وأخذ البيعة بالخلافة ونشر الأمن والسلام في دولة مترامية الأطراف وكثرت فيها الفتن وتعدد الطامعون والمتآمرون، وترك لابنه دولة فتية ثابتة الأركان، وأخذ له البيعة من أنصاره وأعدائه. وقد ذكر ذلك في وصيته لابنه بقوله: يا بني إني قد كفيتُك الرحلة والترحال ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء وأخضعت لك أعناق العرب وجمعت لك من جمع واحد..[1].

وبين له مواطن الخطر التي يمكن أن تعصف بحكمه، أو تشكل مصدر قلق له فأضاف في وصيته: ... وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش؛ الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر[2]. وذكر له الأسلوب المناسب للتعامل مع كل منهم، مما يدل على بعد نظر معاوية في معرفة الرجال والتعامل معهم. وقد يستشم المرء من

(١) الكامل ٣: ٢٥٩، الطبري ٥: ٣٢٢.

(٢) نفس المصدر.

هذه الوصية إدراك معاوية ضعف ابنه وولي عهده في معالجة الأمور، فحدد له معالم الطريق ورسم له السياسة االتي يجب أن يسلكها مع بدء عهده في الخلافة، فذكر في وصيته؛ . . . أما ابن عمر فإنه رجل قد وقذته العبادة، فإذا لم يبق أحد غيره بايعك.

وأما الحسين بن علي، فهو رجل خفيف، ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه، فإذا خرج وظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً وقرابة من محمد ﷺ.

وأما ابن أبي بكر، فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً، صنع مثله. ليس له همة إلا في النساء واللهو.

وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب، فإن أَمْكَنَتْهُ فرصة وثب فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فظفرت به فقطعه إرباً إرباً[(١)].

تشير الوصية بما جاء فيها إلى أن معاوية توقع أن يكون أشد الصراع مع عبد الله، وصدق في نبوءته فقد وصل صراعهما حدّ المواجهة، ولا بد قبل أن نمضي في أخبار هذه الفترة أن نعرف بعضاً من سيرة وأخلاق يزيد بعد أن عرفنا عن عبد الله نسكه وورعه وأنه كان قوام الليل صوام النهار وكان يسمى حمام المسجد، كما مر معنا مواقف له في المنازعات والفتن.

---

(١) الكامل ٣: ٢٥٩، الطبري ٥: ٣٢٢.

نشأ يزيد في بيت الإمارة والخلافة، وكان يهتم بالصيد واللهو أكثر من عبادته، وأوضح وصف لسيرته، ما ذكره وفد أهل المدينة المنورة بعد زيارته في دمشق وعودتهم إلى المدينة، فقد أظهروا شتم يزيد وعيبه، وقالوا: قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر ويضرب بالطنابير، ويعزف عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسمر عنده الخلاب ـ وهم اللصوص ـ[1]. ولم يشارك يزيد أباه في أمور الحكم، ولم يسند له والده إدارات يعمل بها فكانت تنقصه الخبرة الإدارية، ولا ننسى فارق السن وأثره في النفوس، فعندما بويع يزيد بالخلافة لم يكن تجاوز السادسة والثلاثين، بينما كان عبد الله في الستين من عمره. لذلك كانت حصيلة فترة حكم يزيد التي لم تبلغ أربع سنوات أن أصيبت الأمة بثلاث فواجع أساءت لسمعته وهي وقعة كربلاء التي استشهد فيها الحسين عام٦١ هـ، ووقعة الحرة واستباحة جند يزيد المدينة المنورة ثلاثة أيام عام ٦٣ هـ، وأخيراً حصار مكة ورمي الحرم المكي بالمجانيق عام ٦٤هـ.

رفض البيعة ووقعة كربلاء:

توفي معاوية بن أبي سفيان عام ٦٠هـ، وبويع ابنه يزيد بالخلافة، ولم يكن يؤرقه إلا بيعة النفر الذين أبوا على معاوية بيعته، فكتب إلى

---

(١) الكامل ٣:٣٠٧.

واليه بالمدينة، الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، كتاباً يخبره فيه بموت معاوية، وأنه يتوسم بأهل البلاد خيراً، وطلب منه قراءة الكتاب على الملأ وأخذ البيعة له، وأرسل له كتاباً آخر صغيراً حتى لا يطلع عليه أحد لأنه شديد اللهجة ينم عن مخاوف يزيد يقول فيه: «أما بعد فخذ حسيناً وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام»[1].

لما قرأ الوليد كتاب الخليفة، فزع لنبأ وفاة معاوية، وعظم عليه أمر ما أُمر به، وكأنه لم يسلم بسياسة يزيد ولم يقر ما أمر به، فأراد أن يشرك مروان بن الحكم الرأي، فهو ذو خبرة واسعة بالحكم والإدارة، فاستدعى مروان وأطلعه على كتاب الخليفة واستشاره كيف يصنع؟، فقال مروان: «أرى أن تدعوهم الساعة وتأمرهم بالبيعة، فإن فعلوا، قبلت منهم وكففت عنهم، وإن أبوا ضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية فإنهم إن علموا بموته وثب كل رجل منهم بناحية، وأظهر الخلاف ودعا إلى نفسه، وكان يقصد بهذا الكلام كلاً من الحسين بن علي بن أبي طالب وعبدالله بن الزبير. أما ابن عمر فلا يرى القتال ولا يحب أن يلي على الناس، إلا أن يدفع إليه هذا الأمر عفواً.

أرسل الوليد بن عتبة إلى الحسين وابن الزبير يدعوهما إليه وكانا في المسجد، فاستغربا طلب الوليد وقال ابن الزبير للحسين: «ما تراه

---

(١) الطبري ٥: ٣٣٨.

بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها؟، فقال الحسين: أظن أن طاغيتهم قد هلك، فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو في الناس الخبر. وخرج الحسين فجمع فتيانه وتوجه لمقابلة الوليد، أما ابن الزبير فقال لرسول الوليد: الآن آتيكم، ثم أتى داره فكمن فيها، ثم بعث إليه الوليد ثانية، فوجده قد جمع أصحابه واحترز، فألح عليه الوليد، فكان جوابه: أمهلوني. فبعث إليه الوليد مواليه فشتموه وقالوا له: يا ابن الكاهلية[1]، لتأتين الأمير أو ليقتلنك. فقال لهم: والله لقد استربت لكثرة الإرسال فلا تعجلوني حتى أبعث إلى الأمير من يأتيني برأيه، فبعث إليه أخاه جعفر بن الزبير، فقال: رحمك الله كف عن عبد الله فإنك قد أفزعته وذعرته بكثرة رسلك، وهو يأتيك غداً إن شاء الله، فمر رسلك فلينصرفوا عنه، فبعث إليهم الوليد فانصرفوا، وخرج ابن الزبير من ليلته فأخذ طريقاً جانبية هو وأخوه جعفر ليس معهما ثالث، وتجنب الطريق الرئيسية مخافة الطلب وتوجه نحو مكة. وأرسل الوليد في أثره حبيب بن كُوَين في ثلاثين فارساً، فلم يقعوا له على أثر، وشغلوا يومهم ذلك كله بطلب ابن الزبير. وكان مخرج ابن الزبير من المدينة أواخر رجب من عام ٦٠ هـ، ولما

(١) نسبة إلى جدة العوام زهرة بنت عمرو من بني كاهلة بن أسد بن خزيمة (الكامل ٣: ٣٧٤).

وصل مكة ودخلها كان يقول: «إني في الطاعة، غير أني لا أُبايع أحداً وأنا مستجير بالبيت الحرام»[1].

لحق الحسين بن علي بمكة في الليلة التالية لخروج عبد الله بن الزبير، ولما وصل مكة استقبله أهلها بحرارة بالغة، فهو خليفة أخيه الحسن وابن بنت رسول الله ﷺ، وأصبح الناس يجتمعون عنده حلقاً، بعد أن كانوا يلتفون حول ابن الزبير، وأدرك ابن الزبير أن الناس لن يحفلوا به والحسين مقيم بالبلد، ولن تكون له دعوة مع وجود الحسين في مكة، فكان يلزم جانب الكعبة يصلي عندها عامة النهار، ويطوف ويأتي الحسين فيمن يأتيه من المعتمرين وأهل الآفاق، ولم يكن يصلي بصلاة الأمويين ولا يفيض بإفاضتهم.

تلقى الحسين رسائل عديدة، وجاءته الوفود من الكوفة، تحمل الكتب من أشياعه يستحثونه، ويستقدمونه إلى العراق ليبايعوه، هرباً من بيعة يزيد. فأرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ليستطلع حقيقة الأمر في العراق، وكان استقبال مسلم في الكوفة، يشجع على المضي في مسيرة الحسين، فأرسل يشجعه على الخروج من مكة. بينما استاء يزيد من ضعف واليه هناك، وموقفه من الشيعة وظهور دعوة الحسين، فأرسل عبيد الله بن زياد والياً جديداً ليقمع المعارضة ويحول دون بيعة الحسين، فأخذ عبيد الله الشيعة بشدة وقسوة وقتل منهم كثيرين،

---

(١) الأخبار الطوال ٢٦٢.

وعلى رأسهم مسلم بن عقيل. فضعفت شوكتهم وتفرق جمعهم، وأرسل ابن زياد قواته إلى مشارف العراق لمنع الحسين من دخول الكوفة.

لما استلم الحسين دعوة ابن عقيل، وعزم على الخروج من مكة أتاه عمر بن عبد الحرث بن هشام ينصحه بعدم الخروج إلى العراق، ثم جاءه عبد الله بن عباس وحاول أن يثنيه عن عزمه بالخروج وذكّره بموقف أهل الكوفة من أبيه وأخيه وخذلانهم لهما، ثم دخل عليه ابن الزبير وقال له: «لو أقمت بهذا الحرم وبعثت رسلك في البلدان، وكتبت إلى شيعتك بالعراق أن يقدموا عليك، فإذا قوي أمرك، نفيت عمال يزيد عن هذا البلد، وعليَّ لك المكاتفة والمؤازرة، وإن عملت بمشورتي طلبت هذا الأمر بهذا الحرم فإنه مجمع أهل الآفاق ومورد أهل الأقطار، لم يعدمك ـ بإذن الله ـ إدراك ما تريد ورجوت أن تنالَه. فقال له الحسين: إن أبي حدثني أن لها كبشاً به تستحل حرمتها فما أحب أن أكون ذلك الكبش. قال: فأقم إن شئت وتوليني أنا الأمر فتطاع ولا تعصى، قال: ولا أريد هذا أيضاً. ولما خرج ابن الزبير من عنده، قال الحسين: إن هذا ليس شيء في الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز، وقد علم أن الناس لا يعدلونه بي فوَدَّ أني خرجت حتى يخلو له»[1].

---

(١) الكامل ٣: ٢٧٥.

كان ابن عباس يعرف شعور ابن الزبير، فقال للحسين لما يئس من منعه من الخروج: «أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إياه بالحجاز». ولما هم الحسين بمغادرة مكة، لقي ابن عباس ابن الزبير فقال له: قرت عينك يا ابن الزبير؟. ثم قال:

يا لك من قنبرة بمعمر ... خلا لكِ الجو فبيضي واصفري
ونقري ماشئت أن تنقري ... صيادك اليوم قتيل فابشري

وتابع ابن عباس القول: «هذا حسين يخرج إلى العراق ويخليك بالحجاز».

لم يلتفت الحسين لنصيحة أحد وسار إلى الكوفة، معه فئة قليلة من أنصاره وآل بيته، فلما أصبح على مشارف الكوفة خرج إليه جند ابن زياد فعدل إلى كربلاء، وهناك جرى قتال عنيف ومجزرة رهيبة ذهب ضحيتها الحسين ومن معه وذلك في العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ.

عبد الله يدعو لنفسه:

بعد أن غادر الحسين مكة كان ابن الزبير يدعو لنفسه فيها سراً ويجمع حوله الأنصار وكان يتقصى أخبار الحسين في الكوفة، حتى وصله نبأ استشهاده في كربلاء، فحزن عليه كثيراً، وقام في أهل مكة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد ﷺ: «إن أهل العراق غدر فجر إلا قليلاً، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق،

وإنهم دعوا حسيناً لينصروه ويولوه عليهم، فلما قدم عليهم، ثاروا إليه فقالوا له: إما أن تضع يدك في أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سميّة سلماً فيمضي فيك حكمه، وإما أن تحارب، فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير، وإن كان الله عز وجل لم يطلع على الغيب أحداً، أنه مقتول، ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة، فرحم الله حسيناً وأخزى قاتل حسين! لعمري لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم ما كان في مثله واعظ وناه عنهم ولكنه ما حم نازل (القدر واقع)، وإذا أراد الله أمراً لن يدفع، أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهداً، لا، ولا نراهم لذلك أهلاً.

وبعد أن حمل ابن الزبير على أهل الكوفة، حاول أن يثير الناس على يزيد من طرف خفي، فعدد مناقب الحسين بالتصريح ومثالب يزيد بالتلميح، فأضاف قائلاً: «... أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصيام شرب الحرام، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في تطلاب الصيد، فسوف يلقون غياً»[1].

أثار ابن الزبير بكلامه أهل مكة، وظن بمدحه الحسين أن يكسب تأييد الشيعة، فاجتمع إليه أصحابه وقالوا: أيها الرجل أظهر بيعتك،

---

(١) الطبري ٥: ٤٧٤.

فإنه لم يبق أحد إذ هلك الحسين ينازعك هذا الأمر، فقال لهم: لا تعجلوا. وكان عمرو بن سعيد بن العاص عامل مكة أشد شيء عليه وعلى أصحابه يرصد حركاتهم ويتقصى أخبارهم .

لما وصل نبأ ابن الزبير وأصحابه إلى يزيد، بعث رجلاً في عشرة نفر من حرسه، وقال: «انطلق فانظر ما عنده، فإن كان في الطاعة، فخذ البيعة، وإن أبى فضع في عنقه جامعة[1] وائتني به» فلما قدم الحرسيّ عليه وأخبره بما أتاه فيه، تمثل ابن الزبير:

إني لمن نبعة صم مكاسرها إذا تناوحت القصباء والعُشَرَ[2]

فلا أَلِينُ لغير الحق أسأله حتى يلين لِضِرس الماضِغ الحجر

وقال للحرسيّ: انصرف إلى صاحبك فأعلمه أنني لا أجيبه إلى شيءٍ مما سألني. فانصرف الحرسي إلى يزيد فأخبره بذلك .

لما علم يزيد بموقف ابن الزبير أرسل بعشرة نفر من أشراف أهل الشام، فيهم النعمان بن بشير وعبدالله بن عضاة الأشعري وغيرهم، وقال لهم: «انطلقوا فأعيدوه إلى الطاعة والجماعة، وأعلموه أن أحب الأمور إليّ ما فيه السلامة» فساروا حتى وافوا مكة ودخلوا على ابن الزبير في المسجد فدعوه إلى الطاعة وسألوه البيعة، فقال ابن الزبير

(١) الجامعة: الغل لأنها تجمع اليدين إلى العنقين.

(٢) القصباء (القصب) كل نبات ذو أنابيب، واحدتها قصبة، والعشر شجر عريض الورق يذهب صعداً في السماء (ابن عساكر ٧: ٤٥٢).

لابن عضأة: أتستحل قتالي في هذا الحرم؟ قال: نعم، إن أنت لم تجب إلى طاعة أمير المؤمنين، قال ابن الزبير: وتستحل قتل هذه الحمامة؟ وأشار إلى حمامة من حمام المسجد، فأخذ ابن عضأة قوسه وفوق فيها سهماً فبوأه (سدده) نحو الحمامة، ثم قال: يا حمامة أتعصين أمير المؤمنين؟ والتفت إلى ابن الزبير وقال: أما لو أنها قالت نعم، لقتلتها، وعاد القوم إلى الشام وأعلموا يزيد أن ابن الزبير لم يجب .

كان يزيد قد عزل الوليد بن عتبة عن المدينة، لتقصيره في حق عبد الله والحسين، مما هيأ لهما الخروج من المدينة كما مرّ معنا، وضم المدينة إلى عامله على مكة عمرو بن سعيد بن العاص، فجاءها في رمضان من عام ٦٠هـ، وعلم بعزم الحسين المسير إلى الكوفة، فأرسل إليه رسله لمنعه من ذلك، فأبى وتضارب الطرفان بالسياط، فلما خرج الحسين من مكة، كثف عمرو جهوده للنيل من ابن الزبير وأنصاره، فاستعمل على شرطته في المدينة عمرو بن الزبير، لِما كان بينه وبين أخيه عبد الله من البغضاء، فأرسل صاحب الشرطة إلى نفر من أهل المدينة من أنصار عبد الله وأصحابه، فضربهم ضرباً شديداً، ومنهم أخوه المنذر بن الزبير وابنه محمد بن المنذر، وهرب عدد منهم إلى مكة على رأسهم عبد الرحمن بن عثمان. ولما أراد عمرو بن سعيد تأديب ابن الزبير في مكة استشار صاحب شرطته فيمن يرسله إلى

أخيه[1]، فقال: لا توجه إليه رجلاً أنكأ له مني. فجهز معه الناس، وجعل عليهم أنيس بن عمرو الأسلمي مساعداً له. ولما علم مروان بن الحكم بما عزم عليه عمرو قال له: «لا تغزو مكة واتق الله ولا تحل حرمة البيت، وخلوا ابن الزبير فقد كبر وله ستون سنة وهو لجوج». فقال عمرو بن الزبير: «والله لنغزونه في جوف الكعبة على رغم أنف من رغم». وأتى أبو شريح الخزاعي إلى عمرو فقال له: «لا تغز مكة فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما أذن لي بالقتال فيها ساعة من نهار ثم عادت كحرمتها بالأمس[2]. فقال له عمرو: نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ».

توجه الجيش إلى مكة بقيادة عمرو بن الزبير، فلما قرب منها جعل قسماً من جيشه بقيادة أنيس الأسلمي بذي طوى، ونزل عمرو بن الزبير بالأبطح، وأرسل إلى أخيه عبد الله يقول: «بُرّ يمين يزيد ـ وكان يزيد حلف أن لا يقبل بيعة عبد الله إلا أن يؤتى به في جامعة ـ وتعال حتى أجعل في عنقك جامعة من فضة لا تُرى ولا يضرب الناس بعضهم بعضاً، واتق الله. فأجابه عبد الله: موعدك المسجد.

---

(١) يذكر الطبري أن يزيد كتب إلى عمرو بن سعيد أن استعمل عمرو بن الزبير على جيش، وابعثه إلى ابن الزبير (الطبري ٥ : ٣٤٥).

(٢) راجع الحديث في البخاري ٤ : ١٥٦٧.

أرسل عبد الله بن الزبير عبد الله بن صفوان الجمحي إلى أنيس، فقاتلوهم حتى قتل أنيس ولحقت الهزيمة بجنده، وأرسل مصعب بن عبد الرحمن إلى عمرو، وكان قد تفرّق عنه أصحابه لما رأوا ما حل بأنيس ورجاله، ولجأ عمرو إلى دار علقمة، فجاءه أخوه عبيدة بن الزبير وقال: أنا أجيرك، وذهب به إلى عبد الله، فأبى أن يجيره. وقال: أتجيره من حقوق الناس؟ هذا لا يصح، وما أمرتك أن تجير هذا الفاسق المستحل لحرمات الله. وكان عمرو ينزف دماً فقال له عبد الله: ما هذا الدم الذي في وجهك يا خبيث؟ فقال عمرو:

لسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

فحبسه في سجن عارم، ثم اقتص منه عن كل من ضربهم بالمدينة، إلا المنذر وابنه فإنهما أبيا أن يستقيدا. ومات عمرو بالسجن تحت ضرب السياط [(١)].

انتهت حملة عمرو بن الزبير بالفشل الذريع، وأصيب عمرو بن سعيد بخيبة أمل كبيرة، وأصبح موقفه حرجاً عند الخليفة، وكان لنبأ مقتل الحسين في كربلاء وقع الصاعقة على أهل الحجاز، فازدادت النقمة على يزيد، خاصة بعد أن خطب عبد الله بن الزبير بالناس وندد بقَتَلة الحسين ونال من سيرة وأخلاق يزيد، وطالبه أصحابه بإظهار

---

(١) الكامل ٣: ٢٦٦، الطبري ٥: ٣٤٤.

دعوته، فأدرك يزيد الخطر الذي يتهدده في الحجاز، إضافة إلى نقمة أهل العراق بعد مأساة الحسين، وتأثر بوشاية الوليد بن عتبة الذي دخل في أناس من بني أمية على يزيد وقال له: «لو شاء عمرو بن سعيد لأخذ ابن الزبير وبعث به إليك، فعزل يزيد ابن سعيد وأرسل الوليد عاملاً إلى المدينة مكانه، وكان ذلك في أول ذي الحجة من عام ٦١هـ.

توجه عمرو بن سعيد إلى دمشق ودخل على يزيد، فعاتبه لتقصيره بالضرب على يد ابن الزبير، فقال ابن سعيد: يا أمير المؤمنين، الشاهد يرى مالا يرى الغائب، وإن جلّ أهل مكة وأهل المدينة قد كانوا مالوا إليه وهَوَوه وأعطوه الرضا، ودعا بعضهم بعضاً سراً وعلانية، ولم يكن معي جند أقوى بهم عليه لو ناهضته، وقد كان يحذرني ويتحرز مني، وكنت أرفق به وأداريه لأستمكر منه فأثب عليه، مع أني ضيقت عليه، ومنعته من أشياء كثيرة لو تركته وإياها، ما كانت له إلا معونة، وجعلت على مكة وطرقها وشعابها رجالاً لا يدعون أحداً يدخلها حتى يكتبوا إلي باسمه واسم أبيه ومن أي بلاد الله هو وما جاء به وما يريد، فإن كان من أصحابه أو ممن أرى أنه يريده، رددته صاغراً، وإن كان ممن لا أتهم، خليت سبيله. . . .

إن أقوال عمرو بن سعيد، وهو الوالي الرسمي في بلاد الحجاز، تلقي ضوءاً على واقع المنطقة ودعوة عبد الله بن الزبير، وكيف كان يعالجها:

-إن جل أهل الحجاز يميلون لابن الزبير ويرفضون بيعة يزيد.

ـ إن الحملة التي قادها عمرو بن الزبير إلى مكة، لم تكن بالمستوى المطلوب، فهي لا تتعدى بعض المتطوعين أو رجال الشرطة لقول ابن سعيد: لم يكن عندي جند أقوى بهم عليه، لذلك لم تؤد الحملة مهمتها مما رفع معنويات أنصار عبد الله.

ـ الاحتياطات الأمنية التي اتخذها ابن سعيد لحصار مكة، والحد من الاتصالات بين عبد الله ودعاته في الأمصار ومراقبة حركة الدخول والخروج إلى مكة.

وكانت الأوضاع الأمنية في الحجاز سيئة جداً، وابن الزبير يؤجج المعارضة على الأمويين، ولم يستطع الوالي الجديد السيطرة على الموقف، بل أراد ابن الزبير أن يمكر به ويوقع بين يزيد وولاته. فكتب إلى يزيد: «إنك بعثت إلينا رجلاً أخرق، لا يتجه لأمر رشد، ولا يرعوي لعظة الحكيم، ولو بعثت إلينا رجلاً سهل الخلق لينّ الكتف، رجوتُ أن يَسْهل من الأمور ما استوعر منها، وأن يجتمع ما تفرق، فانظر في ذلك، فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله والسلام»[1].

وكان يزيد يميل إلى المهادنة والسلام مع عبد الله الذي قويت

---

(١) الطبري ٥: ٤٧٩.

شوكته واستعرت دعوته، ريثما يستعد للقضاء عليه، فاستجاب لكتابه، وعزل الوليد، وبعث مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وهو فتى حديث عهد بالحكم ولم يجرب الأمور، ولم تحنكه السنون، ولم تضرسه التجارب. فلما جاء المدينة، جمع وفداً من أشرافها يمثلون قومهم، وفيهم عبد الله بن حنظلة والمنذر بن الزبير، وأرسلهم إلى دمشق لزيارة الخليفة، عسى أن تهدأ النفوس، ويتجدد الولاء والمحبة ليزيد، فلما قدم الوفد على يزيد، أكرمهم وأحسن إليهم، وأعظم جوائزهم، ثم انصرفوا من عنده وعادوا إلى المدينة، عدا المنذر بن الزبير الذي توجه لزيارة صديقه، والي العراق عبيد الله بن زياد ثم لحق بهم.

لما عاد الوفد إلى المدينة أظهروا شتم يزيد وقالوا للناس: «قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر ويعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب ويسامر الحزاب والفتيان، وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه، فتابعهم الناس، ولما عاد المنذر بن الزبير إلى المدينة حرض الناس على يزيد بقوله: إن يزيد والله لقد أجازني بمئة ألف درهم، وإنه لا يمنعني ما صنع إلا أن أخبركم خبره، وأصدقكم عنه، والله إنه ليشرب الخمر وإنه ليسكر حتى يدع الصلاة [1].

تأثر يزيد من موقف أهل المدينة، وتنكر وفدهم لمعاملته وعطائه،

---

(١) الكامل ٣: ٣٠٥.

ولكنه أراد قبل أن يؤدبهم ويبطش بهم، أن يلقي بآخر سهم في جعبته من الحلم والروية، لأن والده أوصاه بأهل الحجاز خيراً؛ إنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم، وتعاهد من غاب. فأرسل النعمان بن بشير الأنصاري مندوباً عنه، لينصحهم، ويردهم إلى جادة الصواب، وقال له: «ائت الناس وقومك فافثأهم عما يريدون، فإنهم إن لم ينهضوا في هذا الأمر، لم يجترىء الناس على خلافي، وبها من عشيرتي من لا أحب أن ينهض في هذه الفتنة فيهلك» فلما قدم النعمان المدينة، جمع الناس إليه، وأمرهم بالطاعة ولزوم الجماعة وخوّفهم الفتنة، وقال لهم: لا طاقة لكم بأهل الشام. فقاطعه عبد الله بن مطيع العدوي قائلاً: ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا، وفساد ما أصلح الله من أمرنا. فلما وجدهم مصرين على موقفهم، تركهم وانصرف عائداً إلى يزيد، وأبلغه رفض أهل المدينة لطاعته. فأرسل يزيد كتاباً إلى عامله عثمان، يهدد فيه أهل المدينة وينذرهم عاقبة أمرهم، وأمره أن يقرأ الكتاب على الناس وقد جاء في نهايته: . . . فوالله لئن وضعتكم تحت قدمي، لأطأنكم وطأة أقيل بها عدوكم، وأترككم أحاديث تنسخ أخباركم مع أخبار عاد وثمود. فكان أثر هذه الرسالة على الناس كأثر النار في الهشيم إذ نددوا بالخليفة، وشتموه، وتهجموا على الوالي، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل على خلع يزيد. ثم هاجموا الأمويين الموجودين في المدينة وأنصارهم، فلجأ هؤلاء إلى دار مروان بن الحكم. وألقى أهل المدينة

عليهم حصاراً ضعيفاً، ولم يستطع الوالي عثمان بن محمد أن يتصرف تجاه ثورة أهل المدينة، لضعف رأيه وصغر سنه، فكتب جماعة من بني أمية كتاباً إلى يزيد جاء فيه: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإنه قد حصرنا في دار مروان بن الحكم، ومنعنا العذْب ورمينا بالجبوب (الأرض الغليظة) فيا غوثاه يا غوثاه. قرأ يزيد الكتاب فثار غضبه وقال:

لقد بدلوا الحلم الذي من سجيتي فبدلت قومي غلظة بليان

ثم سأل حامل الكتاب فقال: أما يكون بنو أمية ومواليهم ألف رجل بالمدينة؟ قال: بلى والله وأكثر، قال: فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار؟ قال: يا أمير المؤمنين أجمع الناس كلهم عليهم، فلم يكن لهم بجمع الناس طاقة.

عندها قرر إرسال جيش إلى المدينة لتأديب أهلها والثأر لكرامة الأمويين، ثم التوجه إلى مكة للقضاء على حركة ابن الزبير. ولكن لم يكن غزو مكة بالأمر السهل، ولا يجرؤ كل مسلم على القيام بهذه المهمة فلِمَكة حرمتها. ووجد يزيد صعوبة كبيرة في تجهيز الجيش وتوفير أمير لقيادته، فبعث أولاً إلى عمرو بن سعيد، وأقرأه الكتاب وطلب إليه أن يسير إلى المدينة، فقال له: قد كنت ضبطت لك البلاد وأحكمت لك الأمور، فأما الآن إذ صارت، فهي دماء قريش تهراق بالصعيد، فلا أحب أن أكون أنا أتولى ذلك، يتولاها منهم من هو أبعد منهم مني.

ثم كتب إلى عامله في العراق عبيد الله بن زياد أن اغز ابن الزبير، فقال: لا أجمعهما لفاسق أبداً، أقتل ابن بنت رسول الله ﷺ وأغزو البيت.

ثم أقرأ مسلم بن عقبة المري الكتاب، فاستغرب ضعف الأمويين في المدينة وقال للخليفة: يا أمير المؤمنين لا تنصر هؤلاء فإنهم الأذلاء، أما استطاعوا أن يقاتلوا يوماً واحداً أو شطره أو ساعة منه؟ دعهم يا أمير المؤمنين حتى يجهدوا أنفسهم في جهاد عدوهم وعز سلطانهم، ويستبين لك من يقاتل منهم على طاعتك ويصبر عليها أو يستسلم. قال: ويحك إنه لا خير في العيش بعدهم، فاخرج فأنبئني نبأك وسر بالناس.

لم يجد مسلم حماساً للاشتراك في هذه الحملة حتى خرج مناديه فنادى: أن سيروا إلى الحجاز على أخذ أعطياتكم كملاً، ومعونة مئة دينار توضع في يد الرجل من ساعته، فانتدب لذلك اثنا عشر ألف رجل.

وقعة الحرة ٦٣ هـ:

كانت وقعة الحرة أولى الفواجع التي حلت بأهل مدينة بكاملها في الدولة، منذ ظهور الدعوة الإسلامية، فهي ليست كمعارك الجمل وصفين التي انحصرت أحداثها بين فئتين متقاتلتين، وليست كمصرع

عثمان أو الحسين، لأنها لم تهدف القضاء على شخص معين، ولا هي كمعركة النهروان التي استهدفت فئة معينة خارجة على الجماعة، ولا كان هدفها محصوراً بالانتقام ممن جحدوا نعمة وعطاء الخليفة، عندما وفدوا عليه في دمشق، بل كان هدف الحملة الانتقام من أهل المدينة كافة، ثأراً للاعتداء على الأمويين فيها، وتأديباً لمن أعلنوا خلع بيعة يزيد وتعاطفوا مع ابن الزبير، وإرهاباً لابن الزبير الذي كان الهدف الثاني للحملة.

اجتمع يزيد بقائد الحملة مسلم بن عقبة، وقال له: «إن حدث بك حدث فاستخلف الحصين بن نمير السكوني، وقال له: ادع القوم ثلاثاً فإن هم أجابوك، وإلا فقاتلهم، فإذا أظهرت عليهم فأبحها ثلاثاً، فما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند، فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس، وانظر علي بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً فإنه لم يدخل مع الناس، وإنه قد أتاني كتابه[1]، وكان علي بن الحسين قد آوى إليه آل مروان بن الحكم، عندما حوصر الأمويون في دار مروان، ثم خرج لوداع الجند متقلداً سيفه، ومتنكباً قوساً عربية وهو يقول:

أبلغ أبا بكر إذا الليل سرى　　وهبط القوم على وادي القرى

أجمع سكران من القوم ترى　　أم جمع يقظان نفى عنه الكرى؟

---

(١) الكامل ٣: ٣١١.

يـا عجبـاً مـن ملحـدٍ يـا عجبـا   مخادع بالدين يعفو بالعرى

لما عرف أهل المدينة بنبأ جيش مسلم، شددوا الحصار على بني أمية، وهددوهم بالقتل، أو يعطوا عهداً إذا خرجوا من المدينة، أن لا يساعدوا عدوهم عليهم، ولا يطلعوا مسلم بن عقبة على عوراتهم، فلما أعطوهم عهداً بذلك خلّوا سبيلهم، فخرجوا حتى لقوا جيش ابن عقبة، فالتزم عمرو بن عثمان بن عفان بعهده، ولم يجب على أسئلة مسلم، بينما دخل عبد الملك بن مروان على مسلم، ولبى طلبه بأن حدد له أفضل السبل لدخول المدينة، فقال: «أرى أن تسير بمن معك، فإذا انتهيت إلى ذي نخلة نزلت، فاستظل الناس في ظله فأكلوا من صقره، فإذا أصبحت من الغد مضيت وتركت المدينة ذات اليسار، ثم درت بها حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقاً ثم تستقبل القوم، فإذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم الشمس، طَلَعَتْ بين أكتاف أصحابك، فلا تؤذيهم ويصيبهم أذاها، ويرون من ائتلاق بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم، مالا ترونه أنتم ما داموا مغربين، ثم قاتلهم، واستعن بالله عليهم، فإن الله ناصرك إذ خالفوا الإمام وخرجوا من الجماعة»[1].

نفذ مسلم خطة عبد الملك بدقة بالغة، ولما وصل الحرة دعا أهلها

---

(١) أوردت هذا النص لأهميته ودقته من الناحية العسكرية ودلالته الواضحة لشخصية عبد الملك بن مروان.

وقال لهم: «إن أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل، وإني أكره إراقة دمائكم، وإني أؤجلكم ثلاثاً، فمن ارعوى وراجع الحق، قبلنا منه وانصرفت عنكم، وسرت إلى هذا الملحد الذي بمكة وإن أبيتم، كنا قد اعتذرنا إليكم».

فلما مضت الثلاث قال: «يا أهل المدينة ما تصنعون، أتسالمون أم تحاربون؟»، فقالوا: بل نحارب، فقال لهم: لا تفعلوا بل ادخلوا في الطاعة، ونجعل جدنا وشوكتنا على هذا الملحد، الذي قد جمع إليه المراق والفساق من كل أوب - يعني ابن الزبير -» فقالوا له: «يا أعداء الله لو أردتم أن تجوزوا إليه ما تركناكم نحن، قد نعلم أن تأتوا بيت الله الحرام فتخيفوا أهله وتلحدوا فيه وتستحلوا حرمته، لا والله لا نفعل».

بذلك أعلن أهل المدينة موقفهم صراحة بخلع بيعة يزيد والبيعة لابن الزبير، ولم يكن قولهم تأييداً لابن الزبير شخصياً، بل للدفاع عن حرمة الحرم، أي أنهم يدافعون عن اللائذ ببيت الله الحرام.

كان أهل المدينة اتخذوا خندقاً في جانب المدينة، وكان عليهم عبد الله بن مطيع العدوي، وعبدالله بن حنظلة، وكانت وقعة عظيمة بين الطرفين، قتل فيها خلق كثير من أهل المدينة تجاوز أربعة آلاف من سائر الناس، ومن نجا منهم تفرق في الأمصار، لذلك سمي مسلم بن عقبة مسرفاً لأنه أسرف في القتل، ولم يرفع القتل عن أهل

المدينة، حتى بايعوا ليزيد على أنهم عبيد له، يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء، واستخلف ابن عقبة على المدينة روح بن زنباع الجذامي، وكانت وقعة الحرة في آخر ذي الحجة من عام ٦٣ هـ.

توجه ابن عقبة نحو مكة، فلما وصل إلى المشلل[١]، اشتد به المرض وكان عليلاً في بطنه بالماء الأصفر، فجمع رؤوس الأجناد وقال لهم: «إن أمير المؤمنين عهد إلي إن حدث بي حدث الموت، أن أستخلف عليكم حصين بن نمير السكوني، والله لو كان الأمر إلي ما فعلت، ولكن أكره معصية أمر أمير المؤمنين عند الموت، وقال للحصين: انظر يا برذعة[٢] الحمار فاحفظ ما أوصيك به؛ عُمَّ الأخبار، ولا ترع سمعك قريشاً أبداً، ولا ترُدّن أهل الشام عن عدوهم، ولا تقيمن إلا ثلاثاً حتى تناجز ابن الزبير الفاسق»[٣].

الحصار الأول لمكة ٦٤ هـ:

علم ابن الزبير ما حل بأهل المدينة، وكان نبأً عظيماً، فاستعد هو وأصحابه للقاء الحملة، وصدها عن البيت الحرام، ووفد على ابن

---

(١) المشلل: على ثلاثة أميال من قديد، بينهما خيمتي أم معبد (تاريخ الخميس ٢: ٣٠٣).

(٢) البرذعة: جلال الحمار وهو غطاء يوضع تحت الرحل.

(٣) الطبري ٥: ٤٩٦.

الزبير في مكة للدفاع عن الكعبة؛ الفارون من المدينة، والمختار بن عبيد الثقفي، الذي قدم من العراق بعد أن أخرجه منها عبيد الله بن زياد، ونافع بن الأزرق على رأس جماعة من الخوارج، وبذلك توفر لابن الزبير جبهة قوية يجمع بين فئاتها النقمة على يزيد.

قدم حصين بن نمير مكة لأربع بقين من محرم سنة ٦٤ هـ، وخرج عبد الله وصحبه للقائه، وكان شعارهم «لا حكم إلا لله». ولما التقى الجمعان، دفع عبد الله أخاه المنذر في مجموعة من المقاتلين، اشتبكوا مع جند الشام، فاشتد القتال وقتل المنذر، وحمل جند يزيد حملة انكشف منها أصحاب عبد الله، فكان يصابرهم ويجالدهم ويشد من عزيمة جنده، وأبلى المختار بلاء حسناً فنادى في المقاتلين: «يا أهل الإسلام إليّ، إليّ، أنا ابن أبي عبيد بن مسعود، وأنا ابن الكرار لا الفرار، أنا ابن المقدمين غير المحجمين، إليّ يا أهل الحفاظ وحماة الأوتار. فاجتمع حوله خلق كثير، وردوا جند يزيد عن بعض السكك التي دخلوها في أطراف مكة، واستمر القتال مدة شهر صفر. عندها نصب الحصين المجانيق على جبل أبي قبيس، وعلى قعيقعان ثم رمى الكعبة بالمجانيق والنبال، ولم يستطع أحد أن يطوف بالبيت من شدة الرمي وتساقط الحجارة، فأسند ابن الزبير ألواحاً من الساج إلى البيت وألقى عليها القطائف والفرش، حتى إذا وقع عليها الحجر نبا عن البيت، وكانوا يطوفون تحت الألواح، فإذا سمعوا صوت الحجر

حين يقع على الفرش والقطائف كبروا، كما ضرب ابن الزبير فسطاطاً في ناحية المسجد، لمعالجة الجرحى من أصحابه، فدخل أحد رجاله الفسطاط وفي سنان رمحه نار، فاشتعل الفسطاط ووقعت النار على الكعبة، فاحترق الخشب وانصدع الركن، واحترقت الأستار، وتساقطت إلى الأرض، وكان بينها قرنا الكبش الذي فدى الله به إسماعيل، كانا في السقف»[1]. واجتمع أهل مكة ومعهم ابن الزبير في ناحية الحجر، وجند يزيد يرمونهم بالنبل وهم يرتجزون:

خطـارة مثـل الفنيـق المـزبـد ترمى بها جدران هذا المسجد

وقيل إن الكعبة احترقت نتيجة نار كانت تحملها النبل. ويذكر مسلم في صحيحه، أن ابن الزبير ترك الكعبة ليراها الناس محترقة، ويحرضهم بذلك على جند يزيد[2].

* * *

(١) تاريخ الخلفاء: ٢٤٩.

(٢) صحيح مسلم ٤: ٩٨.



خلافة عبد الله بن الزبير

٦٤ هـ - ٧٣ هـ

وفاة يزيد :

توفي الخليفة يزيد بن معاوية في ربيع الأول من عام ٦٤ هـ، وكان الحصين بن نمير قائد حملة الشام يحاصر مكة، وكان المكيون يعانون من شدة الحصار. فلما علم ابن الزبير بوفاة يزيد، نادى هو وأهل مكة جندَ الشام قائلين: «علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم؟» فلم يصدقوهم أول الأمر.

بين عبد الله والحصين :

لما بلغ الحصين خبر موت الخليفة بعث إلى ابن الزبير فقال: موعد ما بيننا الليلة، الأبطح، وكان يريد أن يجتمع به ويفاوضه في الخلافة، فالتقيا وتحادثا طويلاً واشتد بينهما الجدل. وراث فرس الحصين، فجاء حمام الحرم يلتقط روث الفرس، فكف الحصين فرسه عنهن وقال: أخاف أن يقتل فرسي حمام الحرم، فقال ابن الزبير: تتحرجون من هذا وأنتم تقتلون المسلمين في الحرم!. وكان فيما قال الحصين لابن الزبير وهو يدعوه للخلافة: إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، هلم فلنبايعك ثم اخرج معي إلى الشام، فإن هذا الجند الذي معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم، فوالله لا يختلف

عليك اثنان، وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء، التي كانت بيننا وبينك، والتي كانت بيننا وبين أهل هذه الحرة. فقال عبد الله: أنا أهدر تلك الدماء؟! أما والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم، وكان الحصين يكلمه سراً، وهو يجهر جهراً ويقول: لا والله لا أفعل. فقال له الحصين: «قبح الله من يعدك بعد هذه داهياً قط أو أديباً، قد كنت أظن لك رأياً، ألا أراني أكلمك سراً وتكلمني جهراً، وأدعوك للخلافة وتعدني القتل والهلكة»[1].

بعد أن افترقا، أدرك عبد الله خطأه في موقفه مع الحصين عندما عرض عليه الخلافة، ومرافقته إلى بلاد الشام، وأراد أن يصحح هذا الموقف، وكان الحصين يستعد للعودة بجنده إلى دمشق، فأرسل إليه يقول: أما أن أسير إلى الشام فلست فاعلاً، وأكره الخروج من مكة، ولكن بايعوا لي هناك فإني مؤمنكم وعادل فيكم، فرد الحصين بقوله: أرأيت إن لم تقدم بنفسك، ووجدتُ هناك أناساً كثيراً من أهل هذا البيت يطلبونها ويجيبهم الناس، فما أنا صانع؟.

عرض وتحليل:

لابد من وقفة مع هذا الخبر الذي تضاربت بسببه الآراء حول ابن الزبير، فالبعض أقره على موقفه من عرض الحصين، والبعض خطّأه،

(١) الطبري ٥: ٥٠٢، الكامل ٣: ٣١٩.

واتهمه آخرون بالجبن[1]، واعتبروا فترة خلافته فتنة لأنه رفض الخلافة، عندما قدمها الحصين له على طبق من ذهب، في الوقت الذي كان يسعى لها بنفسه، وأَخَذَ البيعة من أهل الحجاز.

يصعب على المرء أن ينفذ إلى أعماق ابن الزبير ويعرف ما كان يدور في خلده، والأسباب التي دفعته لرفض عرض الحصين، ولكن هناك مؤشرات عديدة تؤخذ بعين الاعتبار من الواقع السياسي في بلاد الحجاز، خاصة حيث أعلن ابن الزبير دعوته:

- لم تكن للحصين صفة رسمية عندما عرض الخلافة على ابن الزبير، ولم يكن يمثل الأمويين كلهم، رغم أنه قال: إن الجند الذين معه هم وجوه أهل الشام وفرسانهم. فكيف يثق عبد الله بقائد حملة كان يقاتله قبل أيام ويريد أن يفتك به، وقد ظهرت المناقضة عند الحصين بقوله بعد ذلك: أرأيت إن لم تقدم بنفسك، ووجدتُ هناك أناساً كثيراً من أهل هذا البيت يطلبونها ويجيبهم الناس.

إذن هناك احتمال كبير أن يطلبها أحد الأمويين ويستجيب له الناس، وهذا تضارب بأقوال الحصين.

- إن الذي عرض عليه الخلافة هو أحد أبطال معركة الحرّة، وكان حول ابن الزبير عدد من أهل المدينة الذين هربوا من وحشية تلك

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٢٢٥.

المعركة، لذلك كان ابن الزبير يرد على الحصين بصوت جهوري، يسمعه مَن حوله من أنصاره ليدفع الشك عن نفوسهم، ويطمئنهم على موقفه من الحصين، فقال إنه لا يرضى قتل عشرة من جيش الحصين بكل واحد من أهل المدينة.

- كيف يثق ابن الزبير بالحصين الذي رمى الكعبة، (بيت الله الحرام)، بالمنجنيق وتسبب في حرقها، وكانت آثار الدمار ماثلة أمامه، فكيف يضحي ببيعة ونصرة أهل الحجاز ويستجيب لدعوة من كان بالأمس يحاربه بتهمة الخروج على طاعة الخليفة ثم يعرض عليه الخلافة.

- عندما توجه الحصين بجيشه إلى مكة لقتال ابن الزبير، ذكرنا قدوم المختار بن عبيد الثقفي وجماعة من الخوارج على رأسهم نافع بن الأزرق ونجدة الحروري، ليقاتلوا إلى جانب العائذ ببيت الله رغم اختلافهم معه بالرأي، كما أن عدداً من أهل المدينة لما خلعوا بيعة يزيد ورفضوا بيعته، بايعوا عبد الله بن حنظلة ولم يبايعوا ابن الزبير، ولجؤوا إلى مكة لأنها بيت الله، ولأن المتنفذ بها رفض بيعة يزيد، فكيف يضحي ابن الزبير بمركز العائذ ببيت الله ويخسر كل هؤلاء الأنصار، ويذهب إلى دمشق حيث لا أنصار له ولأسرته، بل تعتبر بلاد الشام مؤيدة للأمويين. يضاف إلى ذلك موقف ابن الزبير من أهل الشام، فعندما قدم خوارج اليمامة إلى مكة قال شاعرهم يخاطب ابن الزبير:

يا ابن الزبير أترضى معشراً قتلوا أباك ظلماً فما أبقوا ولا تركوا
ضحوا بعثمان يوم النحر ضاحية ما أعظم الحرمة العظمى التي انتهكوا

فقال ابن الزبير: نعم لو أعانني الشيطان على أهل الشام لقبلته[1].

- لم يمض على مأساة كربلاء وقت طويل حتى ينسى ابن الزبير ما حل بالحسين، لقد ترك الحسين بلاد الحجاز حيث أهله وعشيرته، ورفض نصائح ابن عباس وغيره بالبقاء بينهم، وذهب إلى مَن نكثوا العهد مع أبيه وأخيه ظناً منه أنهم ناصِروه، فكانت النتيجة أن ضحوا به أيضاً، فكيف يغادر عبد الله بن الزبير موطن عصبته وأنصاره بالحجاز، ويذهب لبلاد عُرفت بولائها للأسرة الحاكمة التي يريد أن يحل مكانها، علماً بأن الحسين خرج من الحجاز بعد إلحاح أهل الكوفة بحضوره إليهم، بينما ابن الزبير لم يطلب منه الحضور إلى دمشق إلا الحصين.

- أما في دمشق فقد شهدت العاصمة فراغاً سياسياً عندما تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة، وربما كانت الفرصة مواتية لابن الزبير، لو حضر مع الحصين وطالب بالبيعة معتمداً على مكانته وسنه وماضيه، لكن هذه المغامرة تحتاج إلى عزيمة وتضحية قد لا تتوفران

---

(١) أنساب الأشراف ٤: ٣٩٤.

عند من تجاوز الستين من عمره وأصبح أكثر تفكيراً واحترازاً وأقل مغامرة، لذلك قد يكون لابن الزبير ما يبرر قبوله الخلافة من الحصين ورفضه الدعوة بمرافقته إلى بلاد الشام، فهو لا يأمن من اشترك بإيذاء أهل مدينة رسول الله ﷺ في وقعة الحرة، وانتهك حرمة بيت الله الحرام، وجاء ليقضي على العائذ ببيت الله. فآثر عبد الله دعوة الأمصار لبيعته وهو مقيم في مكة، عائذ ببيت الله. وقد تكون رؤيا وتقدير ابن الزبير خاطئة، لكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [الأنفال: ٤٤].

خلافة معاوية الثاني:

استخلف يزيد قبل وفاته ابنه معاوية من بعده، فلما وصل نبأ وفاته إلى دمشق، بويع معاوية بالخلافة، في ربيع الثاني سنة ٦٤ هـ. ولم يمكث بالخلافة إلا ثلاثة أشهر، وقيل أربعين يوماً، وكان صالحاً ناسكاً لا يهمه أمر الحكم، فلما كان آخر ولايته أمر فنودي الصلاة جامعة، فلما اجتمع الناس خطب فيهم قائلاً: «إني قد وليت أمركم وأنا ضعيف عنه... وقد تركتُ لكم أمركم فولوا عليكم من يصلح لكم» ثم دخل منزله وتغيب حتى مات، بعد أن أوصى أن يصلي الضحاك بن قيس الفهري بالناس حتى يقوم لهم خليفة. وبذلك

ترك معاوية بن يزيد منصب الخلافة شاغراً، وجعل أمر المسلمين شورى بينهم حتى لا يحمل وزر أي خلف له. وكان أنصار ابن الزبير هناك يقولون: إن ابن الزبير أولى أهل زمانه بالأمر لأنه ابن حواري رسول الله ﷺ والطالب بدم الخليفة المظلوم عثمان، وهو رجل له شجاعة وسن وفضل[1].

بيعة الأمصار لابن الزبير:

بعد أن تنازل معاوية عن الخلافة لم يبق من يخالف ابن الزبير عليها، ففي الحجاز يوجد عبد الله بن عمر وعبدالله بن عباس ومحمد بن الحنفية، ولم يكن أحد منهم يسعى للخلافة في ذلك الوقت. ولم يجتمع بنو أمية في بلاد الشام على خلف لمعاوية الثاني بعد أن زهد بالخلافة وتنازل عنها، حتى إن شيخهم مروان بن الحكم كان يفكر بالتوجه إلى مكة ومبايعة ابن الزبير. ولم يكن في مصر والعراق من يطمع بالخلافة ويشكل خطراً على ابن الزبير.

بعد أن بقي الناس نحو ثلاثة أشهر بلا إمام، أعلن ابن الزبير خلافته بمكة في رجب عام ٦٤ هـ وطالب الناس بالبيعة[2]. ويقال

---

(١) أنساب الأشراف ٥: ١٢٨، البداية والنهاية ٨: ٢٣٨.

(٢) يروى في أيام معاوية بن أبي سفيان أنْ جمع المسجد الحرام بين عبد الله بن الزبير وأخويه مصعب وعروة وعبدالملك بن مروان، فقال =

إن أول من بايعه مصعب بن عبد الرحمن، فقال الناس: هذا أمر فيه صعوبة، كما بايعه عبد الله بن جعفر وعبدالله بن علي بن أبي طالب، وبعث إلى ابن عمر وابن الحنفية وابن عباس ليبايعوا، فأبوا عليه.

أرسل ابن الزبير رسله إلى الأمصار لأخذ البيعة من الناس، فاستناب على أهل المدينة أخاه عبيد الله بن الزبير، وأمَره بإجلاء بني أمية عن المدينة تعاطفاً مع أهلها وإرضاءً لهم، لكن قراره هذا كان خاطئاً من الوجهة السياسية، فقد أوغر صدر الأمويين عليه، وجعلهم يحثون مروان بن الحكم، على استلام الخلافة تخلصاً من ابن الزبير. وأرسل عبد الرحمن بن جحدم إلى مصر. كما أرسل إلى اليمن وخراسان فبايعوه، أما البصرة والكوفة فقد تأخر ظهور أمره فيها بعض الوقت لوجود عبيد الله بن زياد وطمعه بالسلطة هناك.

= بعضهم: هلم فلنتمنه، فقال عبد الله بن الزبير: منيتي أن أملك الحرمين وأنال الخلافة، وقال مصعب: منيتي أن أملك العراقين وأجمع بين عقيلتي قريش سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة، وقال عروة: منيتي الزهد في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة وممن يروى عنه هذا العلم، وقال عبد الملك: منيتي أن أملك الأرض كلها وأخلف معاوية (ويقال إن رابعهم كان عبد الله بن عمر ومنيته المغفرة) وقد تحققت لكل منهم أمنيته (ابن خلكان ٣: ٢٥٨، البداية والنهاية ٨: ٣١٩).

بيعة أهل مصر:

لما علم أهل مصر بوفاة يزيد، أوفد الخوارج وفداً منهم إلى ابن الزبير، يطلبون منه أن يرسل إليهم والياً من قبله، يؤازرونه ظناً منهم أن ابن الزبير على مذهبهم، فهو خارج على الأمويين، وقاتل الزعيم الخارجي نجدة العامري إلى جانبه في حصار الحصين لمكة. كما جاء أناس من مصر من غير الخوارج يطلبون من ابن الزبير إرسال حاكم لهم، فأرسل عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهري، فقدم مصر في طائفة من الخوارج، وخرج واليها سعيد بن زيد، وأصبحت مصر تابعة لابن الزبير[١].

بيعة أهل الشام:

لعبت العصبية القبلية في بلاد الشام دوراً كبيراً أفاد ابن الزبير، فقد كان يزيد يعتمد في جل أعماله على أخواله الكلبيين، مما أثار نقمة القيسيين عليه، ولكن لم تظهر هذه النقمة بشكل واضح إلا عندما شغر منصب الخلافة بعد معاوية الثاني، وكان الضحاك بن قيس الفهري من زعماء القيسيين يدعو لابن الزبير سراً، وطلب منه معاوية أن يؤم الناس بالصلاة حتى يصبح لهم خليفة، فكان يتدبر شؤون دمشق.

---

(١) مصر في فجر الإسلام : ٨٠.

أما النعمان بن بشير حاكم حمص، فكان ابن الزبير يعرف موقفه منذ أن وفد عليه مع وفد من أشراف أهل الشام يدعوه لطاعة يزيد، فاختلى به ابن الزبير في تلك الزيارة وقال له: أنشدك الله، أنا أفضل عندك أم يزيد؟، فقال: بل أنت، فقال: فوالدي خير أم والده؟ قال: بل والدك، قال: فأمي خير أم أمه؟ قال: بل أمك، قال: فخالتي خير أم خالته؟ قال: بل خالتك، قال: فعمتي خير أم عمته؟ قال: بل عمتك؛ أبوك الزبير وأمك أسماء بنت أبي بكر وخالتك عائشة وعمتك خديجة بنت خويلد، قال: أفتشير علي بمبايعة يزيد؟ قال النعمان: أما إذا استشرتني فلا أرى لك ذلك ولست بعائد إليك بعد هذا أبداً[1].

وكان زفر بن الحرث الكلابي على قنسرين وهو يميل لبيعة ابن الزبير، أما حسان بن مالك الكلبي فكان على فلسطين وهواه مع الأمويين فاستخلف على فلسطين روح بن زنباع وتوجه إلى الأردن، فثار ناتل بن قيس بروح بن زنباع وأخرجه من فلسطين وكان يؤيد ابن الزبير، وبذلك كان ولاة بلاد الشام، عدا الأردن، يؤيدون ابن الزبير، فأرسل كتبه إلى الضحاك والنعمان وزفر وناتل ليأخذوا البيعة له في أمصارهم.

(١) الأخبار الطوال: ٢٦٣.

بيعة أهل العراق:

يختلف وضع العراق الذي يقع إلى الغرب من بلاد فارس عن غيره من الأمصار، لتعدد عناصر السكان فيه. خاصة من الموالي، كما ظهرت العصبية القبلية التي حاربها الإسلام، وتعددت الأحزاب في وقت مبكر، وكانت أكبر مدنه البصرة والكوفة اللتان تأسستا مع وصول المسلمين، لتكونا معسكرات للقادمين الجدد الذين حملوا معهم عصبيتهم القبلية، كما كان العراق المركز الثاني للخلافة الإسلامية بعد المدينة، عندما انتقل الخليفة الراشدي علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الكوفة يوم وقعة الجمل، وجعلها مركزاً له حتى وفاته.

وشهد العراق معركة صفين بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وهناك انفصل عن علي الخوارج الذين شكلوا حزباً سياسياً معارضاً وحاربوه في حروراء. وبالعراق اغتيل علي بن أبي طالب، وعلى أرض العراق سفكت دماء ابنه الحسين حفيد رسول الله ﷺ وآل بيته، مما جعل هذه المنطقة في اضطراب سياسي دائم، والتطلعات السياسية نحوها كبيرة جداً، وانعكس ذلك على سياسة الدولة بشكل عام.

لما توفي يزيد كان عبيد الله بن زياد والياً على العراق، وكانت سياسته هناك تعتمد على القسوة والبطش والإرهاب فكان الناس يكرهونه، خاصة أنه منفذ نكبة كربلاء. فلما بلغ ابن زياد اختلاف

الناس بالشام على الرئاسة بعد وفاة يزيد، جمع أهل البصرة في المسجد وأعلمهم بوفاة يزيد واختلاف أهل الشام على البيعة، وذكَّرهم بأعماله في توسيع ديوان الجيش وديوان العمال، وطلب إليهم أن يختاروا أميراً يولونه عليهم يدبر أمورهم حتى يجتمع أهل الشام على إمام، وقال إنه يرضى بمن يختارون، وصرف نظرهم عن أي مرشح من خارج العراق، وربما أراد بذلك ابن الزبير، فقال: «فما بكم إلى أحد من أهل البلدان من حاجة ولا يستغني الناس عنكم، فقال أهل البصرة: قد سمعنا مقالتك، وما نعلم أحداً أقوى عليها منك، فهلم فلنبايعك، فأظهر التمنع ثلاثاً ثم بسط يده فبايعوه. فلما انصرفوا جعلوا يمسحون أيديهم بالحيطان وأبواب الدار وهم يقولون: أيظن ابن مرجانة أننا ننقاد له في الجماعة والفرقة!، كذب والله[1]. وما لبثوا أن انفضوا عنه .

ولما أرسل رسله لدعوة أهل الكوفة حصبوهم بالحجارة، وقال قائل منهم: «الحمد الله الذي أراحنا من ابن سمية، أنحن نبايعه؟، لا، ولا كرامة»، وعزلوا نائب ابن زياد بالكوفة، وأرسلوا يطلبون من ابن الزبير أن يولي عليهم أميراً، فأرسل إليهم محمد بن يزيد الأنصاري والياً عليهم ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة على الخراج. فقدما إلى الكوفة في رمضان من عام ٦٤ هـ. وفي تلك الأثناء ظهر في

(١) الطبري ٥: ٥٠٤، الكامل ٣: ٣٢٠.

البصرة أحد فرسانها وهو سلمة بن ذؤيب التميمي، فكان يجول في الأسواق وهو رافع لواءه ويقول: أيها الناس هلموا إلي إني أدعوكم إلى ما لم يدعكم إليه أحد، أدعوكم إلى العائذ بالحرم - يعني عبد الله بن الزبير - فاجتمع إليه أناس وجعلوا يصفقون على يديه يبايعونه، فلما أرسل ابن زياد رجاله ليأتوه بسلمة بن ذؤيب، وجدوا أن الناس قد اجتمعوا عليه وكثر أتباعه، فشعر ابن زياد أنه أصبح وحيداً وأن الناس تخلوا عنه ولن تجدي أي حيلة أو مقاومة، فقرر الهرب واختفى في البصرة حتى ظهر في مؤتمر الجابية بالشام، ووقف إلى جانب مروان بن الحكم يحثه على استلام الخلافة. ولما اختفى ابن زياد رأى أهل البصرة أن يولوا عليهم أميراً يدير شؤونهم، فاجتمعت كلمتهم على عبد الله بن الحارث، وكانوا يلقبونه (ببه) فبايعوه في أول جمادى الآخرة سنة ٦٤ هـ، وطلبوا من ابن الزبير أن يولي عليهم أميراً، فأرسل إليهم عمر بن عبيد الله بن معمر، في شوال سنة ٦٤ هـ، وبذلك دان أهل العراق لابن الزبير عدا الخوارج والشيعة.

وأرسل ابن الزبير عبد الله بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد والياً على اليمن بدل الضحاك بن فيروز، وأطاع أهل اليمن ابن الزبير إلا قليلاً منهم. وأقر ابن الزبير عبيد الله بن خازم السلمي والياً على خراسان. وبذلك اعترفت كل البلدان بخلافة عبد الله بن الزبير إلا

حسان بن مالك في الأردن، الذي كان يسعى للاحتفاظ بالخلافة في البيت الأموي.

خلافة مروان بن الحكم:

توجه حسان بن مالك من فلسطين إلى الأردن لجمع كلمة بني أمية، وكان يسعى لجعل الخلافة لابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية، الذي كان لا زال طفلاً، حتى لا تخرج الخلافة من يد الأمويين، ويكون وصياً على ابن أخته، ويمارس السلطة بنفسه، فجمع أهل الأردن وقال لهم: «ما شهادتكم على ابن الزبير وقتلى الحرة؟، قالوا نشهد أنه منافق، وأن قتلى الحرة في النار، قال: فما شهادتكم على يزيد وقتلاكم بالحرة؟، قالوا: نشهد أنه على حق وأن قتلانا في الجنة، قال: فأنا أشهد لئن كان يزيد وشيعته على حق، إنهم اليوم على حق، ولئن كان ابن الزبير وشيعته على باطل، إنهم اليوم عليه، قالوا له: صدقت نحن نبايعك على أن نقاتل من خالفك، وأطاع ابن الزبير، على أن تجنبنا هذين الغلامين ـ يعنون ابني يزيد: عبد الله وخالد ـ فإنا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي[1]. فلم يفلح حسان في تحقيق مأربه، وخاب أمله، وبقيت مشكلة الخلافة قائمة، ونفوذ ابن الزبير يطغى على سلطة الأمويين ويتهددها.

---

(١) الكامل ٣: ٣٢٦.

وكان الحصين بن نمير وصل من الحجاز، فوجد بني أمية على ما هم عليه من الحيرة، فأخبر مروان بن الحكم بما كان بينه وبين ابن الزبير، وقال له ولبني أمية: «نراكم في اختلاط فأقيموا أميركم قبل أن يدخل عليكم شأنكم، فتكون فتنة عمياء صماء». وكان لهذا الكلام أثره في نفوس مروان والأمويين.

كان حسان يريد أن يستجلي موقف الضحاك في دمشق، ويكشف أمره للملأ، بعد أن علم أنه يدعو لابن الزبير سراً، فكتب إلى الضحاك كتاباً يمدح فيه بني أمية، ويذم ابن الزبير، وكتب كتاباً آخر سلَّمه إلى رسوله ناغضة، وقال له: إن قرأ كتابي على الناس، وإلا فاقرأ هذا عليهم. وأرسل إلى بني أمية في دمشق يحثهم على حضور الاجتماع، وسلّم ناغضةُ كلاً من الضحاك وبني أمية كتابه. ولما كان يوم الجمعة، صعد الضحاك المنبر وأغفل الرسالة، ربما خوف الفتنة أو لأن الرسالة فيها ذم ابن الزبير، مما يثير أنصاره، ولم يكن الضحاك أعلن بعد بيعة ابن الزبير، ولكن ناغضة أصر على قراءة الرسالة، فلما قرأها وقع الهرج بين الناس، واصطدم القيسيون مؤيدو ابن الزبير، والكلبيون مؤيدو بني أمية، فأمر الضحاك بسجن من شتم ابن الزبير، وأثار الفتنة، فاشتد النزاع بين أهل دمشق. وتدخل خالد وعبد الله أولاد يزيد بن معاوية، ولم تهدأ النفوس إلا عندما اعتذر الضحاك لبني أمية وقال: إنه لا يريد ما يكرهون، واقترح أن يكتبوا إلى حسان

فيجتمع بنو أمية والضحاك بالجابية، ليبايعوا رجلاً منهم، ولما توجه الضحاك إلى الجابية اعترضه ثور بن معن السلمي، وقال له: دعوتنا إلى ابن الزبير فبايعناك على ذلك، وأنت تسير إلى هذا الأعرابي من كلب ـ يقصد حسان ـ تستخلف ابن أخته خالد بن يزيد!، فقال الضحاك: فما الرأي؟ قال: الرأي أن تظهر ما كنا نكتم وتدعو لابن الزبير، فرجع الضحاك ومعه أنصاره فنزل بمرج راهط، قرب دمشق، بينما تابع الأمويون إلى الجابية وكان وصلها حسان بن مالك.

مؤتمر الجابية:

اجتمع بنو أمية وأنصارهم في الجابية، وصلى حسان بالناس أربعين يوماً وهم يتشاورون، ووصل عبيد الله بن زياد هارباً من العراق، فبلغه أن مروان يريد البيعة لابن الزبير، فقال له: استحييتُ لك من ذلكَ، أنت كبير قريش وسيدها تمضي إلى أبي خُبيب فتبايعه!.

وكان بنو أمية منقسمين على أنفسهم، فبعضهم يؤيد خالد بن يزيد، وعلى رأسهم مالك بن هبيرة السكوني، وبعضهم يميل إلى مروان بن الحكم وعلى رأسهم الحصين بن نمير، وكان كل من مالك والحصين يتكلم فيظهر محاسن مرشحه، وطال الحوار حتى حسمه روح بن زنباع فقال: أيها الناس إنكم تذكرون عبد الله بن عمر

وصحبته وقدمه في الإسلام، وهو كما تذكرون، ولكنه ضعيف، وليس بصاحب أمر أمة محمد الضعيف، وتذكرون ابن الزبير وهو كما تذكرون أنه ابن حواري رسول الله ﷺ، وأنه ابن ذات النطاقين، ولكنه منافق قد خلع خليفتين، يزيد وابنه معاوية، وسفك الدماء وشق عصا المسلمين، وليس المنافق بصاحب أمة محمد ﷺ، وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان في الإسلام صدع إلا كان ممن يشعبه، وهو الذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل، وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير ويستشيروا الصغير ـ يعني بالكبير مروان وبالصغير خالد بن يزيد ـ. فاجتمع أمرهم على البيعة لمروان بن الحكم ثم لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد بن العاص، وكانت البيعة لثلاث خلون من ذي القعدة سنة ٦٤ هـ. وبذلك حافظ الأمويون على الخلافة ولكنها خرجت من الأسرة السفيانية إلى الأسرة المروانية.

معركة مرج راهط:

لما تمت البيعة لمروان خرج على رأس الأمويين وأنصارهم في محرم سنة ٦٥ هـ إلى مرج راهط لقتال الضحاك، وكان الضحاك استنجد بأمراء الأجناد في حمص وقنسرين وفلسطين، فأمدوه بالجنود، والتقى مروان والضحاك بمرج راهط، بينما ظهر يزيد بن أبي الغمس الغساني في دمشق، وثار بأهلها، وأعلنوا البيعة لمروان وأمده بالأموال والرجال والسلاح.

اقتتل الناس في مرج راهط واستمر القتال عشرين يوماً، وكانت معركة عصيبة على أهل الشام، قتل فيها عدد كبير منهم، وعلى رأسهم الضحاك بن قيس الفهري، وانهزم أنصاره ولحقوا بأجنادهم، فانتهى أهل حمص إليها، وهرب منها واليها النعمان بن البشير، ولكن أدركوه فقتلوه، كما بلغ نبأ الهزيمة قنسرين، فخرج منها زفر بن الحارث الكلابي هارباً باتجاه قرقيسيا، وهي مدينة على الفرات، فاستولى عليها وتحصن بها، وكانت منيعة ذات أبراج، والتف حوله فيها قبائل قيس المقيمة في المنطقة. وقد تعاطف زفر مع التوابين[1] عندما قدموا من الكوفة إلى الشام وقدم لهم المؤن والمساعدات وبقي يشكل عقبة في طريق جيوش الشام إلى العراق. وهرب ناتل بن قيس الجذامي من فلسطين، ولحق بابن الزبير في مكة وأخبره نبأ الهزيمة. وبذلك دانت بلاد الشام لمروان واستعمل عماله عليها.

الاستيلاء على مصر:

بعد أن استتب الأمر لمروان في دمشق، تطلع نحو مصر لأنها أسهل الأقاليم منالاً، فكان أهلها بعيدين عن المنازعات والاضطرابات التي شهدتها بلاد العراق والحجاز، وكان لا يزال

---

(١) التوابون: هم الشيعة الذين تابوا عن تخاذلهم يوم كربلاء، وعدم الدفاع عن الحسين، وتعاهدوا على الأخذ بالثأر له.

للأمويين أنصار في مصر، رغم أن واليها عبد الرحمن بن جَحدم القرشي كان يدعو لابن الزبير، فخرج مروان بنفسه على رأس جيش باتجاه مصر، وسار ابنه عبد العزيز في جيش إلى أيلة ـ عند العقبة ـ. ولما علم ابن جحدم بقدوم مروان أخذ حيطته للدفاع عن البلاد، فحصن مدينة الفسطاط وحفر حولها خندقاً، وأرسل بعض الحملات تتصدى للحملة الأموية قبل وصولها إلى مصر، لكنها فشلت في مسعاها ودخل مروان إلى عين شمس ثم الفسطاط في مطلع جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ، وانتهى حكم ابن الزبير في مصر بعد أن دام تسعة أشهر، وبايع المصريون مروان بن الحكم إلا نفراً منهم أصروا على تمسكهم ببيعة ابن الزبير، فقضى مروان عليهم ومكث في الفسطاط شهرين ينظم الأمور ويوطد الأمن، وعين ابنه عبد العزيز عليها والياً وعاد إلى بلاد الشام.

وفي طريق العودة علم مروان أن ابن الزبير بعث أخاه مصعباً بجيش إلى فلسطين، فأرسل إليه عمرو بن سعيد بن العاص، فاعترضه قبل أن يدخل بلاد الشام وقاتله، فانهزم مصعب وجنده وعادوا إلى الحجاز، ودخل مروان إلى دمشق وقد دانت له مصر مع بلاد الشام.

بعد بيعة مروان بن الحكم في دمشق، انقسمت البلاد بين خليفتين، عبد الله بن الزبير في مكة وتخضع له بلاد الحجاز واليمن

والعراق وفارس حتى خراسان. ومروان بن الحكم في دمشق وتخضع لسلطته بلاد الشام ومصر. وكانت هذه المرة الأولى التي يدعى فيها لخليفتين في آن واحد. ولما كان تاريخ البيعة لابن الزبير في رجب سنة ٦٤ هـ، وبيعة مروان بعده بعدة أشهر في أواخر ذي القعدة سنة ٦٤ هـ، لذلك لا يعد الذهبي مروان في أمراء المؤمنين، بل هو باغ على ابن الزبير، ولا عهده لابنه بصحيح، وإنما صحت خلافة عبد الملك من حين مقتل ابن الزبير[١].

كان لا بد أن ينشب صراع بين الخليفتين، لينفرد أحدهما بالسلطة، فعندما توجه مروان إلى مصر، أرسل عبد الله أخاه إلى فلسطين، ولكن مروان نجح بالسيطرة على مصر ورد مصعب عن بلاد الشام، وبعد أن عاد إلى دمشق جهز حملتين: إحداهما للجزيرة فالعراق بقيادة عبيد الله بن زياد، والثانية للحجاز بقيادة حبيش بن دلجة القيني.

الحملة إلى العراق:

خرج عبيد الله بن زياد في ربيع الثاني سنة ٦٥ هـ ليحارب زفر بن الحارث زعيم القيسيين في قرقيسيا، ويستخلص الجزيرة منه، ثم يتوجه بعدها إلى العراق ليعيد سلطة بني أمية هناك، وفي طريقه إلى

(١) تاريخ الخلفاء: ٢٥.

قرقيسيا التقى ابن زياد بجيش التوابين، يقوده سليمان بن صرد الخزاعي، الذي تلقى دعماً بالمؤن والمساعدات من زفر، والتقى الجيشان عند موقع يسمى عين وردة، وجرت هناك معركة كبيرة، وقاتل التوابون على قلة عددهم قتال الأبطال، لكن كثرة الجند مع ابن زياد ضيعت فرصة النصر عليهم، واستمرت المعركة عدة أيام استشهد فيها عدد كبير من التوابين على رأسهم سليمان بن صرد، وانسحب الباقون إلى الكوفة، وأصيب جيش الأمويين بخسائر فادحة عاقته عن التقدم لفتح العراق، وتحقيق الهدف الذي خرج من أجله، وبلغ ابن زياد قبل أن يغادر الجزيرة، نبأ موت مروان بن الحكم ومبايعة ابنه عبد الملك بالخلافة من بعده.

الحملة إلى الحجاز:

أراد مروان بن الحكم أن يرد على حملة ابن الزبير التي قادها أخوه مصعب إلى بلاد الشام، فأرسل حملة بقيادة حبيش إلى المدينة، فلما بلغها هرب واليها جابر بن الأسود، الذي كان أرسله ابن الزبير لإدارتها، وسقطت المدينة بيد حبيش في رمضان سنة ٦٥ هـ، وعلم ابن الزبير بمقدم حبيش، فكتب إلى واليه بالبصرة أن يرسل جيشاً لحماية المدينة، وطرد جيش ابن دلجة. فتوجهت الحملة بقيادة حنيف بن السجف التميمي، وسير ابن الزبير حملة بقيادة العباس بن

سهل، وسمّاه أميراً على المدينة، بعد أن هرب جابر منها، وكلفه أن يتقصى أخبار حبيش وأن ينضم إلى جيش البصرة لحربه، والتقت جيوش ابن الزبير بجيش الأمويين عند الربذة وجرى قتال عنيف بين الطرفين، وكان النصر في أول المعركة من نصيب حبيش، لكن حنيفاً كان قد أعدَّ كميناً في منخفض من الأرض، فلما اشتد القتال، خرج رجال الكمين على جيش الشام، فلم يشعر هؤلاء إلا والقوم من ورائهم وقد أحيط بهم، فسقط حبيش في أرض المعركة، وانهزم أصحابه باتجاه بلاد الشام، وكان بين الفارين يوسف بن الحكم الثقفي وابنه الحجاج الذي كان فيما بعد إذا ذكر هذه الوقعة يقول: «ما أقبح الهزيمة». واستقبل أهل المدينة القائدين حنيف والعباس وجنودهما استقبالاً حاراً، واعتبروا معركة الربذة ثأراً لقتلى وقعة الحرة. وبذلك فشلت الحملتان اللتان سيرهما مروان ولم تحققا ما كان يصبو إليه بالسيطرة على بلاد العراق والحجاز.

توفي مروان بن الحكم في رمضان سنة ٦٥ هـ، وكان قبل وفاته قد حنث بوعده في مؤتمر الجابية بشأن ولاية العهد، فأخذ البيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز من بعده.

لما علم ابن الزبير بوفاة مروان بن الحكم، تجدد أمله بالانفراد بالسلطة وبعث جيشاً بقيادة ناتل بن قيس الجذامي إلى فلسطين ليستولي على بلاد الشام، فلما علم عبد الملك بقدوم ناتل، خرج

بنفسه على رأس حملة والتقى بجيش الحجاز عند أجنادين في فلسطين، وجرى قتال عنيف أودى بحياة ناتل وألحق الهزيمة بجيش ابن الزبير، الذي عاد إلى الحجاز خائباً[1]. وعاد عبد الملك إلى دمشق فائزاً منصوراً. وفي العام التالي أرسل عبد الملك جيشاً إلى الحجاز بقيادة ابن عمه عبد الملك بن الحارث بن الحكم، فوصل إلى وادي القرى في شمال الحجاز. ثم عاد دون أن يخوض معركة مع جند الحجاز. وربما كان الهدف من هذه الحملة العسكرية الإرهاب وإظهار القوة حتى لا يعود ابن الزبير لغزو بلاد الشام ثانية.



(١) الكامل ٣: ٣٤٧.



أحزاب المَعارضَة

استمرت خلافة عبد الله بن الزبير تسع سنوات ـ رجب ٦٤ هـ ـ إلى جمادى الآخرة ٧٣ هـ ـ لم يعرف خلالها الهدوء والاستقرار، بسبب خروج بعض الفئات على طاعته، وتحدي عبد الملك بن مروان لسلطته، وقد عمل على إخماد الفتن دون أن يخرج يوماً من عاصمته مكة، بل استعان بالمهلب بن أبي صفرة لحرب الخوارج، وبأخيه مصعب لحرب المختار في العراق، وعندما أرسل عبد الملك جيشاً لقتال عبد الله بمكة، تصدى له بنفسه حتى قتل.

عبدالله والشيعة:

تبدلت مواقف عبد الله مع الشيعة، حسب الظروف التي مرَّ بها الطرفان، وقد ذكرنا في وقعة الجمل أن عبد الله كان من أبطال هذه المعركة التي خاضها إلى جانب والده وطلحة وخالته عائشة ضد الخليفة علي مطالبين بالثأر لدم عثمان بعد أن شهد مصرعه بنفسه، وبعد أن لحقت الهزيمة بجيش أصحاب الجمل عاد ابن الزبير إلى المدينة وأقام هناك بعيداً عن مركز الصراع.

واعتدل موقف ابن الزبير من علي في معركة صفين، فلم يعلن عداءه أو ولاءه لأحد الطرفين المتنازعين، ولم يغادر المدينة إلا عندما

دعاه معاوية مع بعض زعماء المدينة لحضور التحكيم، وكان حضوره شاهداً لا مشاركاً.

وعندما انفرد معاوية بالسلطة كان لا بد أن يحصل تقارب بين ابن الزبير وسيد الشيعة الحسين بن علي، الذي لم يكن راضياً عن تنازل أخيه الحسن عن الخلافة لمعاوية، فجمع العداء للأمويين بين عبد الله والحسين، وازداد هذا التقارب مع اشتداد الأزمات، فعندما أراد معاوية أخذ البيعة لابنه يزيد، خرج عبد الله والحسين من المدينة إلى مكة، وهناك كان عبد الله يتكلم مع معاوية باسم المعارضة التي تضم الحسين، ولما استجاب الحسين لدعوة أهل الكوفة وتوجه إلى العراق، كان عبد الله يعرض عليه التعاون، ويشجعه على إعلان دعوته، بينما يود في قرارة نفسه خروج الحسين من مكة ليخلو الجو له في الحجاز[1]. ولما وصل نبأ مأساة كربلاء إلى مكة، خطب ابن الزبير بالمسلمين مظهراً حزنه العميق، ومعدداً فضائل الحسين، ومنددداً بالقاتلين، فكسب عطف الشيعة وتأييدهم، وجاء المختار الثقفي ليقف معه ضد جيش الحصين بن النمير.

ولم يكن تعاطف الشيعة والهاشميين مع ابن الزبير مطلقاً، بل هو تجمع المعارضة ضد الأمويين مع اختلاف الأهداف، لذلك عندما أعلن عبد الله دعوته في مكة، وطلب من عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية البيعة له، رفضا ذلك، وأراد يزيد أن يستغل هذا الموقف، فكتب إلى ابن عباس يبارك موقفه من دعوة ابن الزبير، ويطلب منه

---

(١) انظر في الفصل السابق خلافة يزيد وعلاقته بالحسين.

تأليب الناس عليه، ويعده بالبر والعطاء، فكتب ابن عباس ليزيد: أما بعد، فقد جاءني كتابك؛ فأما تركي بيعة ابن الزبير فوالله ما أرجو بذلك بِرّك ولا حمدك، ولكن الله بالذي أنوي عليم، وزعمتَ أنك لستَ بناسٍ بري، فاحبس أيها الإنسان برك عني فإني حابس عنك بري، وسألت أن أحبب الناس إليك، وأبغضهم وأخذلهم لابن الزبير، فلا ولا سرور ولا كرامة، كيف وقد قتلت حسيناً[1]. ولم يصر عبد الله على بيعة ابن عباس وابن الحنفية، إلا بعد أن استولى المختار على الكوفة وصارت الشيعة تدعو لابن الحنفية وريث الحسين في زعامة آل البيت .

الشيعة في العراق:

في الوقت الذي رفض ابن الحنفية البيعة لابن الزبير في الحجاز، لم يعلن الشيعة في العراق عداءهم له، بل كانت نقمتهم منصبة على الأمويين عامة، وعبيد الله بن زياد صاحب وقعة كربلاء خاصة، وأعلن شيعة الكوفة عن عزمهم على الجهاد حتى يأخذوا بثأر الحسين ويقتلوا قتلته.

اجتمع التوابون في الكوفة على سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبة الفزاري ونظموا صفوفهم لقتال الفاسقين قتلة الحسين، وبدؤوا يدعون الناس للتجمع والتبرع للقتال. ولم تلق

---

(١) الكامل ٣: ٣١٨ .

دعوتهم نجاحاً كبيراً، لأن المختار الثقفي بدأ بجمع الشيعة حوله، فانقسم الشيعة إلى فريقين بين المختار وسليمان.

لما علم عبد الله بن يزيد والي ابن الزبير على الكوفة بعزم سليمان والتوابين على قتال ابن زياد وجند الشام، اجتمع بهم، وحاول أن يثنيهم عن عزمهم بالخروج للقتال رأفة بهم، فلما أصروا على ذلك، طلب منهم التريث حتى يرسل معهم جيشاً كثيفاً لقتال عدوهم، لكن سليمان لم ينتظر وخرج في الخامس من ربيع الثاني سنة ٦٥ هـ لقتال ابن زياد. وبذلك كان عامل ابن الزبير يؤيد الشيعة في موقفهم من الأمويين، وكان يريد الاشتراك الفعلي بالحملة، لولا تسرع سليمان بالخروج. وعندما غادروا الكوفة، أرسل إليهم عبد الله بن يزيد كتاباً ينصحهم بالعودة، ومما جاء فيه: «... يا قوم إن أيدينا وأيديكم واحدة، وعدونا وعدوكم واحد، ومتى تجتمع كلمتنا على عدونا نظهر على عدونا، ومتى تختلف، تهن شوكتنا على من خالفنا، يا قومنا لا تستغشوا نصحي، ولا تخالفوا أمري. وأَقبلوا حين يُقرأ كتابي عليكم والسلام»[١].

فكتب إليه سليمان يشكره ويثني عليه، ومضوا في طريقهم حتى لاقوا عدوهم في وقعة عين وردة التي هزموا بها وقُتل سليمان، ولو أرسل الوالي دعماً للتوابين لتغير الموقف وربما خلص ابن الزبير من

---

(١) الكامل ٣: ٣٤١.

منافسة الأمويين. وعاد التوابون إلى الكوفة بقيادة رفاعة بن شداد البجلي وانضووا تحت لواء المختار الثقفي.

ابن الزبير والمختار:

المختار بن أبي عبيد مسعود الثقفي، اختلفت الأخبار في تحديد نزعته السياسية، فهو تارة من زعماء الشيعة وتارة ينضم إلى عبد الله بن الزبير لينال مركزاً عنده، وتارة هو متنبىء يدعي نزول الوحي عليه، ومما لا شك فيه أن المختار لعب دوراً في مجرى الأحداث السياسية في العراق خاصة، وغلبت عليه النزعة الشيعية، لذلك قبض عليه ابن زياد وجلده وحبسه، وتعود علاقته بابن الزبير لأيام الحصار الأول وحملة الحصين على مكة، فقد أرسل المختار وهو في سجن ابن زياد يطلب من صهره عبد الله بن عمر[1] أن يشفع فيه عند الخليفة يزيد، فأرسل هذا إلى ابن زياد يأمره بإطلاق سراحه، فأطلقه وأمره بمغادرة البلاد فوراً، فخرج باتجاه الطائف، وسمع نبأ ابن الزبير وأنه عائذ ببيت الله وخارج على يزيد وأنه يبايع سراً، فقال المختار: إنه رجل العرب اليوم وإن اتبع رأيي أَكفِهِ أمر الناس، إن الفتنة أرعدت وأبرقت[2]. وقدم على ابن الزبير بمكة، ولكن هذا كتم عنه أمره،

---

(١) كان عبد الله بن عمر بن الخطاب زوج صفية بنت أبي عبيد أخت المختار.
(٢) الكامل ٣: ٣٣٨.

فاتجه إلى الطائف وعاد إلى مكة بعد سنة فاجتمع بابن الزبير الذي رحب بهذا اللقاء لأنه بحاجة إلى المختار بعد أن ازداد ضغط يزيد عليه، وبايعه المختار على أن لا يقضي الأمور دونه، وعلى أن يكون في أول مَن يأذن له بالدخول عليه، وإذا ظهرت دعوة ابن الزبير أن يستعين به على أفضل أعماله. وبذلك يضمن المختار لنفسه مركزاً عند الخليفة المقبل. لكن ابن الزبير قال: «أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله، فقال المختار: وشر غلماني تبايعه على ذلك، والله لا أبايعك أبداً إلا على ذلك. فبايعه». وأقام عنده وشهد معه قتال الحصين بن نمير وأبلى بلاءً حسناً، وكان ينادي في الناس: يا أهل الإسلام إليّ إليّ، أنا ابن أبي عبيد بن مسعود وأنا ابن الكرار لا الفرار، أنا ابن المقْدِمين غير المحجمين، إليّ يا أهل الحفاظ وحماة الأوتار. وأقام المختار مع ابن الزبير خمسة أشهر بعد وفاة يزيد، ولم يكن ابن الزبير يطمئن لوجوده في مكة بسبب ميوله الشيعية واتصاله بابن الحنفية، وكان يصفه بقوله: «هو أحذر من ذئب أطافت به السباع»[1]. لذلك لم يستعمله أو يعتمد عليه في إدارته.

لما شعر المختار بإهمال ابن الزبير له، بدأ يستفسر عن أوضاع الكوفة من القادمين منها، فأخبره بعضهم بإجماع أهلها على طاعة ابن الزبير إلا طائفة من الناس لا يجدون من يجتمعون عليه، فعزم المختار

---

(١) الطبري ٥: ٥٧٧.

على التوجه إلى الكوفة وتزعم الشيعة هناك، وقال: «أنا أبو إسحق، أنا والله لهم، أنا أجمعهم على الحق وألقى بهم ركبان الباطل وأُهلك بهم كل جبار عنيد». وحفظاً لعلاقة طيبة مع ابن الزبير، استأذنه المختار بالخروج إلى الكوفة بحجة جمع شمل شيعة علي هناك وقتال أهل الشام. فوافقه ابن الزبير على ذلك.

وصل المختار إلى الكوفة في رمضان سنة ٦٤ هـ ونزل ناحية منها، يبكي على الحسين ويذكر مصابه ويعلن خدمته وطاعته لآل البيت، فاجتمع عدد من الشيعة حوله، وعلم بخبر سليمان بن صرد، وعزمه على الخروج لقتال أهل الشام. فهاجمه وأعلن لمن التفوا حوله أن المهدي بن الوصي ـ محمد بن الحنفية ـ بعثه إليهم أميناً ووزيراً ومنتخباً وأميراً، وأمره بقتال الملحدين، والطلب بدم أهل بيته، والدفع عن الضعفاء، فبايعوه. وأرسل للشيعة الذين اجتمعوا عند سليمان بن صرد يقول لهم: «إن سليمان ليس له بصر بالحرب ولا تجربة بالأمور، وإنما يريد أن يخرجكم فيقتلكم ويقتل نفسه». ولكن سليمان خرج ومن معه لحرب عبيد الله بن زياد، وقتل هناك كما مر معنا.

لما خرج سليمان نحو الجزيرة، والتف باقي الشيعة حول المختار، اتصل أعيان الكوفة بواليها عبد الله بن يزيد الخطمي وصاحب خراجها إبراهيم بن محمد بن طلحة، وحذراهما من المختار قائلين:

«إن المختار أشد عليكم من سليمان، إن سليمان إنما خرج يقاتل عدوكم، ويذللهم لكم، وقد خرج عن بلادكم، وإن المختار إنما يريد أن يثب عليكم في مصركم، فسيروا إليه فأوثقوه في الحديد وخلدوه في السجن حتى يستقيم أمر الناس»[1]. فاقتنع عبد الله وقبض على المختار وأودعه السجن. وبعد مقتل سليمان بن صرد، وعودة التوابين من معركة عين الوردة إلى الكوفة، أرسل المختار من سجنه يتصل بهم، ويثني عليهم، ويمنيهم بالظفر، ويعرفهم أنه هو الذي أمره محمد بن الحنفية بطلب الثأر، فأخبروه أنهم على طاعته، وإن شاء أتوه وأخرجوه من السجن، فرفض ذلك حتى لا تكون لهم عليه مِنّة.

استنجد المختار ثانية بابن عمر، وقال: إنه حُبس مظلوماً، وطلب إليه أن يشفع فيه إلى عبد الله بن يزيد وإبراهيم، فأخرجاه من السجن وحلّفاه أن لا يبغيهما غائلة ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان، فلما أصبح في داره، اجتمع حوله الشيعة واتفقوا على الرضا به، ولم يزل أصحابه يكثرون وأمره يقوى، حتى عزل ابن الزبير واليه عبد الله بن يزيد وإبراهيم لإخراجهما المختار من السجن، واستعمل مكانهما عبد الله بن مطيع، فكان قدومه الكوفة في رمضان سنة ٦٥ هـ فجمع الناس في المسجد وخطب فيهم قائلاً: أما بعد فإن أمير

---

(١) الطبري ٥: ٥٨٠.

المؤمنين بعثني على مصركم وثغوركم، وأمرني بجباية فيئكم، وأن لا أحمل فضل فيئكم عنكم إلا برضا منكم، وأن أتبع وصية عمر بن الخطاب، التي أوصى بها عند وفاته، وسيرة عثمان بن عفان، فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا وخذوا على أيدي سفهائكم، فإن لم تفعلوا فلوموا أنفسكم[1] . . .»

فاحتج أصحاب المختار، وطالبوا ابن مطيع أن يسير فيهم بسيرة علي بن أبي طالب، وحذره زعماء الكوفة من خطر المختار وطالبوه بسجنه، فلما استدعاه إليه، اعتذر وتظاهر بالمرض، بينما اتصل بأصحابه وأنصاره وجمعهم ليخرج بهم على والي الكوفة. وكان بعض الشيعة استوثقوا من ابن الحنفية صحة دعوة المختار، فاجتمعت كلمة الشيعة كافة على نصرته وطاعته، وكان مغنماً كبيراً للمختار عندما نجح بضم إبراهيم بن الأشتر، وعشيرته إلى صفه، لما اشتهر به إبراهيم من جرأة وشجاعة وإقدام.

بيعة المختار بالكوفة:

لما استكمل المختار عدته ورجاله، خرج على عبد الله بن مطيع في ربيع الأول سنة ٦٦ هـ، وجرى قتال عنيف بين قوات ابن مطيع وأصحاب المختار على رأسهم إبراهيم بن الأشتر، فلما كثر القتل في

---

(١) الكامل ٣: ٣٥٧.

رجال ابن مطيع، جمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إن من أعجب العجب عجزكم عن عصبة منكم قليل عددها، خبيث دينها، ضالّة مضلّة، اخرجوا إليهم، فامنعوا منهم حريمكم وقاتلوهم عن مصركم، وامنعوا منهم فيئكم، وإلا والله ليشاركنكم في فيئكم من لا حق له فيه، والله لقد بلغني أن فيهم خمسمئة رجل من محرَّريكم عليهم أمير منهم، وإنما ذهاب عزكم وسلطانكم وتغير دينكم حين يكثرون»[1].

ورغم التضحية والقتال الشديد، فقد نزلت الهزيمة بقوات ابن مطيع، ونصحه رؤساء القوم بعد أن أدركوا سوء العاقبة، أن يبحث لنفسه عن مأمن حتى يخرج من الكوفة ويلحق بأمير المؤمنين. فقال لهم قبل مغادرته الكوفة: «أما بعد فقد علمت الذين صنعوا هذا منكم مَن هم، وقد علمت أنما هم أراذلكم وسفهاؤكم وطغامكم وأخسّاؤكم ما عدا الرجل أو الرجلين، وأن أشرافكم وأهل الفضل منكم لم يزالوا سامعين مطيعين مناصحين، وأنا مبلغ ذلك صاحبي ومُعْلمه طاعتكم وجهادكم عدوّه حتى كان الله الغالب على أمره، وقد كان من رأيكم وما أشرتم به علي ما قد علمتم، وقد رأيت أن أخرج الساعة» فقال له الشبث بن ربعي: جزاك الله من أمير خيراً، فقد والله عففت عن أموالنا، وأكرمت أشرافنا، ونصحت لصاحبك، وقضيت

(١) الطبري ٦: ٢٨.

الذي عليك. والله ما كنا لنفارقك أبداً إلا ونحن منك في إذن. فقال: جزاكم الله خيراً [١]. وتوارى ابن مطيع عن الأنظار حتى لحق بالبصرة.

أما المختار فقد أقام في قصر الإمارة، وأخذ البيعة من الناس، وأرسل عماله إلى أقاليم العراق، فلما وصل عامله عبد الرحمن بن سعيد إلى الموصل، انسحب منها محمد بن الأشعث عامل ابن الزبير وقصد المختار لمبايعته.

كان خطر عبيد الله بن زياد ماثلاً في الجزيرة بعد معركة عين الوردة، وخطر الأمويين يهدد كلاً من ابن الزبير والشيعة، فكتب المختار لابن الزبير يجدد العهد معه ويقول: «قد عرفتَ مناصحتي إياك وجهدي على أهل عداوتك، وما كنت أعطيتني إذا أنا فعلت ذلك من نفسك، فلما وفَّيتُ لك، لم تفِ بما عاهدتني عليه، فإن ترد مراجعتي ومناصحتي فعلت والسلام»[٢]. ويشير المختار بذلك إلى عدم التزام ابن الزبير بما اتفقا عليه عند مبايعته له بمكة.

أراد ابن الزبير أن يعرف حقيقة موقف المختار، فعين للكوفة والياً جديداً، هو عمر بن عبد الرحمن بن الحرث المخزومي، وقال له: «إن المختار سامع مطيع فتجهز بما بين ثلاثين ألف درهم إلى أربعين ألفاً»،

(١) الطبري ٦: ٣١.
(٢) الكامل ٣: ٣٧٢.

وعلم المختار بمسير عمر من مكة، فدعا زائدة بن قدامة وأعطاه سبعين ألف درهم وقال له: «هذا ضعف ما أنفق عمر بن عبد الرحمن في طريقه إلينا، وأمره أن يأخذ معه خمسمئة فارس ويسير حتى يلقاه بالطريق ويعطيه النفقة ويأمره بالعودة، فإن فعل، وإلا فأَرِه الخيل» فلما التقيا وأمره زائدة بالانصراف بعد أن أعطاه المال، قال عمر له: «إن أمير المؤمنين قد ولاّني الكوفة ولا بد من إتيانها» فلما أراه الخيل أخذ المال وسار نحو البصرة، وبقيت الكوفة بيد المختار الذي كتب لابن الزبير ثانية يقول: إني اتخذت الكوفة داراً فإن سوغتني ذلك وأمرت لي بألف ألف درهم، سرت إلى الشام فكفيتك ابن مروان، فقال ابن الزبير: إلى متى أماكر كذاب بني ثقيف ويماكرني، ثم تمثل شعراً:

عاري الجواعر من ثمود أصله   عبد ويزعم أنه من يقدم

وكتب إليه: «والله ولا درهم».

ثورة الكوفة:

اشتدت نقمة أشراف الكوفة على سياسة المختار، وتمييزه مواليهم في المعاملة، وإشراكهم في الفيء، واستغلوا توجه إبراهيم بن الأشتر لحرب عبيد الله بن زياد بالجزيرة، فاجتمعوا عند شبث بن ربعي وقرروا الخروج على المختار، الذي تأمر عليهم بغير رضا منهم،

وأَطْلع شبث المختار على مطالب أشراف الكوفة، فأبدى المختار استعداده لتلبية مطالبهم، لكنهم أصروا على قتاله، ولم يثقوا بوعوده لما عرفوا من مراوغته ومكره، ووزعوا قواتهم في أطراف ومداخل الكوفة ليقضوا على المختار، أو يخرجوه من ديارهم، فأرسل المختار رسولاً يأمر ابن الأشتر بالعودة مسرعاً، وبدأ يناور أشراف الكوفة كسباً للوقت حتى وصلت قوات إبراهيم بن الأشتر، ووحد المختار مواقع قواته، حيث يتواجد الثوار وجرى قتال عنيف بين الفريقين في ذي الحجة سنة ٦٦ هـ وسقط المئات بين قتيل وجريح خاصة في جبانة السبيع، وهرب قسم من الثوار فلحقوا بالبصرة، ووقع الباقون أسرى بيد المختار فجمعهم وأمر بقتل كل من شهد قتل الحسين منهم، وأطلق سراح الباقين، وبذلك باءت ثورة أهل الكوفة بالفشل، وعمت الفرحة الشيعة عندما أخذ المختار بثأر الحسين. وازدادت فرحتهم وثقتهم بالمختار عندما وجدوا رأس ابن زياد بين يدي المختار، بعد قتله بمعركة الخازر(١) يوم العاشر من محرم سنة ٦٧ هـ، وبنفس الوقت خفت النقمة على الأمويين بعد أن تحقق الثأر من قاتلي الحسين.

---

(١) أرسل المختار جيشاً بقيادة إبراهيم بن الأشتر لقتال ابن زياد، وللأخذ بثأر الحسين بعد أن عجز التوابون عن أن يثأروا له منه، والتقى الجيشان على نهر الخازر شمال العراق فدارت الدائرة على ابن زياد، وقتل هو وكثير من أشراف الشام، وحملت رأسه إلى المختار فبعثها بدوره إلى ابن الزبير بمكة (تاريخ الإسلام السياسي ١ : ٤٤١).

كان المختار يطمع بنشر دعوته في البصرة منذ خروجه من السجن، وقبل أن يسيطر على الكوفة، فأرسل أحد دعاته المثنى بن مخرّبة العبدي، ليأخذ له البيعة سراً من أهل البصرة، فأجابه رجال من قومه وغيرهم، ولما خرج ابن مطيع من الكوفة، وظهر أمر المختار فيها، اتخذ المثنى مسجداً بالبصرة، واجتمع إليه قومه ودعا إلى المختار علناً، لكن أمير البصرة الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، المعروف بالقباع، أرسل رجال شرطته فهاجموا المثنى ورجاله وطردوهم، فلحق المثنى بالمختار.

صراع ابن الزبير والمختار:

لما فشلت دعوة المثنى بالبصرة، أدرك المختار الخطر المحدق به، فهو بين قوتين عدوتين تحيطان به، القباع بالبصرة، وجند عبد الملك بن مروان بالجزيرة، فآثر المختار أن يجدد مراوغته مع ابن الزبير ليكسب وده ويتفرغ لحرب جند الشام، وطمع بمد نفوذه إلى الحجاز إن أمكنه ذلك. وكان عبد الملك بن مروان أرسل ابن عمه عبد الملك بن الحارث إلى وادي القرى، كما مر معنا سابقاً، فاستغلها المختار لما علم بالأمر، وكتب لعبد الله بن الزبير: «أما بعد فقد بلغني أن عبد الملك بن مروان قد بعث إليك جيشاً، فإن أحببت أن أمدك بمدد أمددتك. فكتب إليه ابن الزبير: أما بعد، فإن كنتَ على طاعتي

فلستُ أكره أن تبعث الجيش إلى بلادي، وتبايع لي الناس قبلكَ، فإذ أتتني بيعتُكَ صدّقتُ مقالتك، وكففت جنودي عن بلادك، وعجل علي بتسريح الجيش الذي أنت باعثه، ومُرهم فليسيروا إلى مَن بوادي القرى من جند ابن مروان فليقاتلوهم والسلام»[1]. فأرسل المختار شرحبيل بن ورس في جيش قوامه ثلاثة آلاف رجل، وقال له: سر حتى تدخل المدينة، فإذا دخلتها فاكتب إلي بذلك حتى يأتيك أمري، وكان هدفه أن يسيره من هناك إلى مكة ليحاصر ابن الزبير ويقاتل هناك. وكان ابن الزبير يعرف كيد المختار، فأرسل جيشاً إلى المدينة، بقيادة عباس بن سهل بن سعد وأمره أن يتحرى جيش المختار، وقال له: «إن وجدتهم على طاعتي فاقبل منهم، وإلا فكايدهم حتى تهلكهم».

التقى عباس وشرحبيل عند الرقيم، فسأله عباس: ألست في طاعة ابن الزبير؟، قال ابن ورس: بلى، قال: فسر بنا إلى عدوه هذا الذي بوادي القرى، قال: ما أمرتُ بطاعتك إنما أمرت أن أسير حتى آتي المدينة، فإذا نزلتُها رأيت رأيي، وأدرك العباس أن في الأمر مكيدة، وأظهر أنه اقتنع بقول شرحبيل ونزل عند الماء، وبعث إلى شرحبيل بدقيق وغنم مسلّخة، وكان جند ابن ورس قد هلكوا جوعاً، فانشغلوا بإعداد طعامهم وتركوا سلاحهم، فلما رأى عباس

---

(١) الطبري ٦ : ٧٢.

منهم ذلك حمل بجنده على جيش شرحبيل وكان يقول لرجاله: يا شرطة الله، إلي إلي قاتلوا المحلين أولياء الشيطان فإنكم على الحق والهدى، وقتل من جيش المختار خلق كثير على رأسهم ابن ورس، ولاذ الباقون بالفرار عائدين إلى الكوفة.

لما علم المختار بما حل بجيشه قام خطيباً فقال: «ألا إن الفجار الأشرار قتلوا الأبرار الأخيار، ألا إنه كان أمراً مأتياً وقضاءً مقضياً، وبرر موقفه أمام الشيعة بعد ما نزل بجنده من القتل، فكتب إلى ابن الحنفية: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإني كنت بعثت إليك جنداً ليذلوا لك الأعداء، وليحوزوا لك البلاد، فساروا إليك حتى إذا أظلوا على طيبة، لقيهم جند الملحد فخدعوهم بالله وغروهم بعهد الله، فلما اطمأنوا إليهم ووثقوا بذلك منهم، وثبوا عليهم فقتلوهم، فإن رأيتَ أن أبعث إلى أهل المدينة من قبلي جيشاً كثيفاً، وتبعث إليهم من قبلك رسلاً حتى يعلم أهل المدينة أني في طاعتك، وأنما بعثت الجند إليهم عن أمرك. فافعل فإنك ستجد عظمهم بحقكم أعرف، وبكم أهل البيت أرأف منهم بآل الزبير الظلمة الملحدين والسلام عليكم».

وبذلك تكشفت نوايا المختار واضحة لابن الزبير، ولم تخف على ابن الحنفية، الذي كان يميل لحقن الدماء، فكتب إلى المختار يقول: «أما بعد أما كتابك فلما بلغني قرأته، وفهمت تعظيمك لحقي،

وما تنوي به من سروري، وإن أحب الأمور كلها إلي ما أطيع الله فيه، فأطع الله ما استطعت فيما أعلنت وأسررت، واعلم أني لو أردتُ لوجدت الناس إلي سراعاً، والأعوان لي كثيراً، ولكني أعتزلهم وأصبر حتى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين».

نهاية المختار:

لما اعتزل عبد الله بن الحارث ولاية البصرة بسبب الاضطرابات والفتن فيها، طلب أهل البصرة من ابن الزبير أن يولي عليهم أميراً، فأرسل إليهم عمر بن عبيد الله بن معمر، وذلك في شوال سنة ٦٤ هـ، فبقي فيها شهراً حتى قدم الحرث بن عبد الله المخزومي فوليها وبقي يرعى شؤون أهلها ويتصدى للخوارج والشيعة حتى ازدادت قوة المختار بالكوفة وسيطر على معظم أنحاء العراق، وانكشف أمره بالكيد لابن الزبير بعد حملة شرحبيل، عندها عزل ابن الزبير واليه القباع عام ٦٧ هـ وأرسل أخاه مصعباً والياً على البصرة، فلما وصلها جمع الناس بالمسجد، وصعد المنبر، وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ١-٤]،

فأشار بيده نحو الشام ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥]. وأشار نحو الحجاز ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾[القصص: ٦] وأشار نحو الكوفة. وقال: يا أهل البصرة بلغني أنكم تلقبون أمراءكم وقد لقبت نفسي بالجزار». وبهذه الخطبة حدد مصعب سياسته بأنه سيعتمد على القوة والعنف مع أعدائه في البصرة وفي العراق، ورغم أنه كان يولي حرب الخوارج كل جهده، كان ينتظر الفرصة المناسبة للقضاء على المختار، فلما نشبت ثورة أهل الكوفة، ولاذ بعضهم بالفرار بعد وقعة جبانة السبيع، أتى جماعة منهم إلى مصعب بالبصرة وفي مقدمتهم شبث بن ربعي، وطلبوا منه أن ينصرهم، ويذهب معهم لقتال المختار، ولما كثر عددهم، واشتد رجاؤهم أرسل مصعب إلى المهلب بن أبي صفرة، وهو واليه في بلاد فارس أن يأتيه، ليشارك في القتال، فأقبل بجموع كثيرة وأموال عظيمة وانضم لجيش مصعب.

أرسل مصعب عبد الرحمن بن مخنف إلى الكوفة ليثبط الناس عن المختار، ويدعوهم لبيعة ابن الزبير سراً، ففعل، ثم لحق به مصعب، وبلغ الخبر المختار فقام في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أهل الكوفة؛ يا أهل الدين؛ وأعوان الحق؛ وأنصار الضعيف؛ وشيعة الرسول، وآل الرسول، إن فرّاركم الذين بغوا عليكم، أتوا

أشباههم من الفاسقين، فاستغووهم عليكم ليمصح ـ ليذهب ـ الحق وينتعش الباطل، ويقتل أولياء الله، والله لو تهلكون ما عُبد الله في الأرض إلا بالفَرْي على الله، واللعن لأهل بيت نبيه، انتدبوا مع أحمر بن شميط فإنكم لو قد لقيتموهم قتلتموهم إن شاء الله قتل عاد وإرَم»[1]. والتقى الجمعان عند المذار، فنادى أصحاب مصعب جيش ابن شميط: إنا ندعوكم إلى كتاب الله، وسنة رسوله، وإلى بيعة أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير، فقال جند ابن شميط: «إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، وإلى بيعة المختار، وإلى أن نجعل هذا الأمر شورى في آل الرسول، فمن زعم من الناس أن أحداً ينبغي له أن يتولى عليهم، برئنا منه وجاهدناه». واحتدم القتال بين الطرفين، وكانت وقعة المذار كارثة على جيش المختار، حيث قتل منهم خلق كثير وتراجع الباقون إلى داخل الكوفة، يحملون معهم نبأ الهزيمة، وجدد المختار تنظيم جنده، ولكن انفض عنه بعضهم وتراجع مع الباقي إلى قصره، وحاصرهم مصعب هناك أربعة أشهر، واشتد الحصار على المختار وأصحابه وأضناهم العطش، فخرجوا من القصر مقاتلين بشجاعة بالغة، حتى قتل المختار في النصف من رمضان سنة ٦٧ هـ، ووقع أصحابه كلهم أسرى بيد مصعب، فأمر بقتلهم جميعاً، ويقال كان عددهم نحو ستة آلاف رجل، معظمهم من الموالي، فكان

---

(١) الطبري ٦: ٩٤.

قتلهم مجزرة دموية، وخطأ فاحشاً ارتكبه مصعب ـ علماً بأن الأسرى طلبوا منه أن يطلق سراحهم، ويستعين بهم على عبد الملك، فيجعلهم في مقدمة جيشه ـ لكنه أبى ذلك وقتلهم نزولاً عند رغبة أشراف الكوفة. وقد أساءت هذه المذبحة لسمعة ابن الزبير كثيراً، وكانت أحد أسباب انهيار حكمه في العراق. وبعد مقتل المختار، كتب مصعب لإبراهيم بن الأشتر لينضم إليه، فلبى دعوته. ووجه مصعب عماله إلى الموصل والجزيرة وآذربيجان وأرمينية.

بمقتل المختار الثقفي، انتهت فتنة استمرت ما ينوف عن سنة سيطر المختار خلالها على معظم العراق، ودحر جيوش الأمويين، وقضى على ابن زياد، وأصبح الناطق باسم الشيعة، وقد تحقق له هذا النجاح، بفضل شجاعته وسياسته التي اعتمدت على:

ـ كسب الموالي، الذين كانوا يشكلون نسبة كبيرة في الكوفة، وكانوا ينقمون على سياسة الأمويين القومية، فقربهم المختار إليه، واعتمد عليهم وشكل منهم جيشاً لمحاربة أعدائه، لكن ذلك كان سبب نقمة أشراف الكوفة عليه.

ـ كسب تأييد الشيعة بإعلانه الثأر من قتلة الحسين، وادعائه أنه يمثل محمد بن الحنفية، وازدادت دعوته قوة بعد مقتل ابن زياد في وقعة الخازر، ودحر جيوش الأمويين هناك سنة ٦٧ هـ، فازداد أنصاره وقوي حزبه.

ـ لم يعلن عداءه لابن الزبير، إلا بعد أن ملك قوة كبيرة، ظن أنها تكفيه لمجابهة حاكم الحجاز، بينما تظاهر أول الأمر أنه يعمل مع عبد الله بن الزبير.

ـ كان يستخدم سلاح المال، ويغدق الأموال على بعض الفئات ليكسبهم إلى جانبه، أو ليأمن شرهم، بل استطاع أن يرشو عمال ابن الزبير ليتخلص منهم، فرشا عبد الله بن مطيع بمئة ألف درهم، حتى ينسحب من الكوفة، وعندما قدم عامل ابن الزبير عمر بن عبد الرحمن بن الحارث والياً إلى الكوفة، رشاه المختار بسبعين ألف درهم، فعدل عن الكوفة وتوجه إلى البصرة.

ـ يضاف إلى ذلك ضعف بعض الولاة، الذين اعتمد عليهم ابن الزبير في العراق، فقد انسحب والي الموصل محمد بن الأشعث من ولايته بمجرد وصول عامل المختار إليها، وأعلن ابن الأشعث بيعته للمختار.

ـ استفاد المختار من تعدد الفئات المتناحرة بالعراق، وانشغال الزبيريين بحرب الخوارج التي كبدتهم خسائر فادحة. ولم يستطع مصعب أن يتفرغ لحرب المختار إلا بعد أن ضمن سيطرة المهلب على الموقف في الأهواز وبلاد فارس.

عبد الله وابن الحنفية:

هو محمد بن علي بن أبي طالب، أخو الحسن والحسين، وأمه خولة بنت جعفر الحنفية وإليها نُسب، وكان محمد يقول: «الحسن والحسين أفضل مني وأنا أعلم منهما، وأصبح زعيم الهاشميين بعد مقتل الحسين بن علي، وبايع يزيد بالخلافة وزاره بدمشق بعد أن تبرأ يزيد من دم الحسين، واستنكر فاجعة كربلاء. وعندما هاجم أهل المدينة سياسة يزيد وسيرته، وخلعوا بيعته، دافع عنه ابن الحنفية، ونفى التهم الموجهة إليه وقال: «ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده، فرأيته مواظباً على الصلاة، متحرياً للخير يسأل عن الفقه ملازماً للسنة، فظن أهل المدينة أن ابن الحنفية يدافع عن يزيد لأنه لا يريد البيعة لعبدالله بن الزبير، فعرضوا عليه أن يبايعوه حاكماً عليهم، فرفض. كما رفض أن يشاركهم في قتال يزيد، فلما هددوه وأنكروا موقفه ترك المدينة ورحل إلى مكة حيث يقيم عبد الله بن الزبير.

حرص ابن الزبير على كسب صداقة ابن الحنفية وأَخْذِ البيعة منه سراً، لكن ابن الحنفية لم يبادله الشعور ولم يستجب لدعوته، وبعد وفاة يزيد جدد ابن الزبير طلب البيعة من ابن عباس وابن الحنفية، فرفضا. ولم يكرههما على ذلك لانشغاله ببيعة الأمصار كلها باديء

الأمر، وبدأ ابن الزبير يشعر بخطر ابن الحنفية بعد مغادرة المختار مكة، وظهوره في الكوفة وسيطرته عليها، وإعلان الدعوة باسم المهدي محمد بن الحنفية مما كان له أثر كبير في ظهور جماعة الكيسانية[1]. لكن ابن الزبير لم يتخذ أي إجراء ضد ابن الحنفية، طالما أنه يقيم بجواره في مكة ويراقب تحركاته، وطالما أن المختار تظاهر بالتودد لابن الزبير والتعاون معه، خاصة وأن الخطر الأموي كان يتهدد كلاً من المختار والشيعة وابن الزبير، فجمعهم العداء للأمويين. وكان ابن الزبير يكتفي بالتنديد أحياناً بابن الحنفية، وينتقده لتأييده الدولة الأموية عكس أخيه الحسين. ولما أرسل المختار جيش شرحبيل إلى المدينة، بحجة دعم ابن الزبير ضد عبد الملك بن مروان، وانكشفت نواياه وعداءه لابن الزبير، واتصاله بابن الحنفية، أرسل ابن الزبير مجدداً يطلب البيعة من ابن عباس وابن الحنفية، فقالا: «لا نبايع حتى تجتمع الأمة على إمام، فكان مرة يكاشرهما، ومرة يلين لهما ثم غلظ عليهما، ثم قصد محمداً فأظهر شتمه وعيبه

---

(١) الكيسانية: إحدى فرق الشيعة نسبة إلى كيسان، ويقال إنه المختار الثقفي أو إنه مولى لعلي بن أبي طالب، ويعتقد أتباع هذه الفرقة بإمامة محمد بن الحنفية بعد الحسن والحسين، ويقول بعضهم إنه أخذ الإمامة عن علي بن أبي طالب مباشرة وأنه يتميز بإحاطته بالعلوم كلها، ويعتقدون أنه لم يمت بل يقيم بجبل رضوى بين أسد ونمر يحفظانه (الملل والنحل ١ : ١٤٩).

وحبسه في زمزم ومَن كان معه من آل بيته وسبعة عشر رجلاً من وجوه أهل الكوفة ومنع دخول الناس عليهم، وتوعدهم بالقتل والإحراق، وأعطى الله عهداً، إن لم يبايعوه أن ينفذ فيهم ما توعدهم به، وضرب لهم في ذلك أجلا[1]. وضيق على ابن عباس في منزله ربما احتراماً لسنه ومكانته.

أرسل ابن الحنفية كتاباً إلى المختار يعلمه بحاله وحال من معه، ويستنجد به وبأهل الكوفة على ابن الزبير، وكان ذلك سنة ٦٦ هـ، فلما اطلع المختار على الكتاب نادى في الناس وقرأه عليهم، وقال: «هذا كتاب مهديّكم وصريح أهل بيت نبيكم، وقد تُركوا محظوراً عليهم كما يحظر على الغنم، ينتظرون القتل والتحريق بالنار في آناء الليل وتارات النهار، ولستُ أبا إسحق إن لم أنصرهم نصراً مؤزراً وإن لم أسرّب إليهم الخيل في إثر الخيل، كالسيل يتلوه السيل حتى يحل بابن الكاهلية الويل»[2]، فبكى الناس وقالوا: «سرحنا إليه وعجل، فوجه أبا عبد الله الجدلي في سبعين راكباً من أهل القوة وأردفهم بآخرين حتى بلغوا نحو مئة وخمسين رجلاً، ولما وصلوا مكة دخلوا المسجد الحرام ومعهم الرايات وهم ينادون: يالثارات الحسين حتى انتهوا إلى زمزم، وكان ابن الزبير قد أعد الحطب ليحرقهم، وكان قد بقي من

---

(١) الكامل ٣: ٣٧٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٦١.
(٢) الطبري ٦: ٧٦.

الأجل يومان، فطردوا الحرس، وكسروا الباب، ودخلوا على ابن الحنفية، فقالوا له: «خلِّ بيننا وبين عدو الله ابن الزبير، فقال لهم: «إني لا أستحل القتال في الحرم، فقال ابن الزبير لما سمع هتافهم: واعجباً لهذه الخشبية[1] ينعون الحسين كأني أنا قتلته، والله لو قدرت على قَتَلَتِهِ لقتلتهم، وقال لهم: أتحسبون أني أخلي سبيلهم دون أن يبايع ويبايعون؟. فقال الجدلي: أي ورب الركن والمقام لتخلين سبيله، أو لنجالدنك بأسيافنا جدالاً يرتاب منه المبطلون. فقال ابن الزبير: والله ما هؤلاء إلا أكلة رأس، والله لو أذنت لأصحابي، ما مضت ساعة حتى تقطف رؤوسهم، فقال له قيس بن مالك: أما والله إني لأرجو إن رمت ذلك أن يوصل إليك قبل أن ترى فينا ما تحب. ووصلت أعداد جديدة من أنصار محمد بن الحنفية يكبرون: يا لثارات الحسين، وهمّوا بابن الزبير، وقد بلغ عددهم نحو أربعة آلاف رجل، فخافهم ابن الزبير، وتعلق بأستار الكعبة وقال: أنا عائذ بالله. فكف ابن الحنفية أصحابه، وحذرهم الفتنة، وخرج وإياهم إلى شعب علي وهم يسبون ابن الزبير .

بقي ابن الحنفية في الشعب حتى قتل المختار، وانقطع عن رجال أبي عبد الله الجدلي الأعطيات التي كان يرسلها المختار، وضعف

---

(١) أُطلق على رجال حملة أبي عبد الله الجدلي، الخشبية، لأنهم دخلوا مكة وبأيديهم الخشب كراهة إشهار السيوف في الحرم (الكامل ٣: ٣٧٥).

موقف ابن الحنفية، فأرسل ابن الزبير أخاه عروة يطلب من محمد البيعة، فأجابه ابن الحنفية: «بؤساً لأخيك ما ألجه فيما أسخط الله، وأغفله عن ذات الله، وقال لأصحابه يخيرهم بين البقاء معه أو الانصراف عنه: إن ابن الزبير يريد أن يثور بنا، وقد أذنت لمن أحب الانصراف عنا، فأعلمه أبو عبد الله الجدلي وغيره أنهم غير مفارقيه، وسيعملون على حمايته والدفاع عنه».

جدد عبد الله طلب البيعة من ابن الحنفية مرة أخرى أو يغادر المنطقة، فأجابه: كيف أبايعك وعبدالله بن مروان يرعد ويبرق بالشام ومصر، فإذا علمتُ أنه ليس أحد يناوئك، بايعتك. وبلغ عبد الملك مقالة ابن الحنفية فأراد أن يكسبه إلى جانبه، وفي ذلك تقرب من الشيعة عامة، وإضعاف لمركز ابن الزبير، فكتب عبد الملك لابن الحنفية يقول: «بلغني ما يؤذيك به ابن الزبير، وأنا عن قريب سائر إليه، فإذا قرأت كتابي فسر أنت وشيعتك وانزل حيث شئت من أرض الشام آمناً مطمئناً»[1]. فخرج بشيعته حتى أتى مدْيَن ونزل بآيلة، وتحدث الناس بفضله وأصبح له أنصار كثيرون، فخاف عبد الملك أن تنتشر دعوته، وندم على استدعائه، وكتب إليه أنه لا يكون في سلطاني من لا يبايعني، وكان ابن الحنفية امتنع عن بيعة أحد حتى تجتمع الأمة كلها عليه، فعاد وأصحابه إلى الشعب، لكن ابن الزبير لما علم بعودته

---

(١) التاريخ الإسلامي للمظفري ٢٢٣.

للشعب أرسل إليه يأمره بالرحيل عنه، فاستأذنه أصحابه في قتال ابن الزبير فلم يأذن لهم وقال: اللهم ألبس ابن الزبير لباس الذل والخوف وسلط عليه وعلى أشياعه من يسومه الذي يسوم الناس[1]. ثم توجه وأصحابه إلى الطائف حيث يقيم ابن عباس.

خرج ابن الحنفية وأصحابه عام ٦٨ هـ من الطائف إلى عرفة، لأداء فريضة الحج، واجتمع في موسم ذلك العام أربعة ألوية في عرفات؛ لواء ابن الزبير، وبقربه لواء ابن الحنفية، وخلفهما لواء نجدة الحروري وأصحابه من الخوارج، ولواء بني أمية. وخاف الناس الفتنة ونشوب القتال، فيفسد على الناس حجهم وقد جاؤوا من كل مكان، فقصد محمد بن جبير كلاً منهم وحذره الفتنة في المشعر الحرام، فأجابه ابن الحنفية: «والله ما أريد ذلك وما أحول بين أحد وبين هذا البيت، ولا يؤتى أحد من الحاج من قبلي. ولكني رجل أدفع عن نفسي من ابن الزبير وما يروم مني، وما أطلبُ هذا الأمر إلا ألاّ يختلف عليَّ فيه اثنان».

وأجابه ابن الزبير: «أنا رجل قد اجتمع علي الناس وبايعوني وهؤلاء أهل خلاف، ويقصد الألوية الثلاثة الأخرى».

وقال نجدة الحروري: «أما أن أبتدىء أحداً بقتال، فلا، ولكن من بدأ بقتال قاتلته».

---

(١) الكامل ٣: ٣٧٥.

وكان رد شيعة بني أمية: «نحن على أن لا نقاتل أحداً إلا إن يقاتلنا».

ويقول ابن جبير: «فلم أر في تلك الألوية قوماً أسكن ولا أسلم دفعة من ابن الحنفية»[1]. وانتهى موسم الحج دون أي قتال، بل التزم الجميع بحرمة مناسكه، وبقي ابن الحنفية في الطائف حتى حصار الحجاج لابن الزبير في مكة، وقد طلب الحجاج عند قدومه الطائف البيعة من ابن الحنفية لعبد الملك، فرفض طالما أن الأمة لم تجتمع على رجل واحد، فبايع بعد مقتل ابن الزبير عام ٧٣ هـ.

عبد الله والخوارج:

الخوارج هم الجماعة التي خرجت من صفوف جيش الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بعد معركة صفين، فأعلنوا رفضهم للتحكيم الذي قبل به علي لفض النزاع مع معاوية، وشكلوا حزب المعارضة في العراق، وكانوا ينقمون على كل من لا يقول بمبادئهم ويكفرونه أحياناً، واشتهروا بشدة بأسهم في القتال وتعصبهم لآرائهم، وجندوا أنفسهم لحرب أعدائهم، ونشروا الذعر والخوف حيث وجدوا. وجرد الحكام الجيوش لقتالهم وردْعهم منذ عهد علي كرم الله وجهه، وكان أشدهم بأساً في ذلك والي العراق عبيد الله بن

---

(١) الطبري ٦: ١٣٨.

زياد، الذي قتل منهم عدداً كبيراً وأودع الكثيرين في السجون حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت. وتبدأ علاقتهم بابن الزبير، بعد أن اجتمعوا في البصرة، وتذاكروا أمرهم بينهم واستعرضوا الكوارث التي حلت بهم وسيف ابن زياد المسلط عليهم، فقال زعيمهم نافع بن الأزرق: «إن الله قد أنزل عليكم الكتاب، وفرض عليكم الجهاد، واحتج عليكم بالبيان، وقد جرد أهل الظلم فيكم السيوف، فاخرجوا بنا إلى هذا الذي قد ثار بمكة، فإن كان على رأينا جاهدنا معه، وإن يكن على غير رأينا دافعناه عن البيت»[1]. فساروا إلى ابن الزبير الذي أحسن استقبالهم، وفرح بقدومهم، وأخبرهم أنه على مثل رأيهم، فقاتلوا معه جند حصين بن نمير، وأبلوا في قتالهم بلاء حسناً. فلما توفي يزيد وتوقف القتال بمكة، أراد الخوارج أن يتأكدوا من موقف ابن الزبير، وهل هو على رأيهم؟، فأتوه وقال له ابن الأزرق: «يا ابن الزبير، اتق الله ربك، وأبغض الخائن المستأثر، وعادِ أول من سن الضلالة، وأحدث الأحداث وخالف حكم الكِتاب، فإنك إن تفعل ذلك ترضِ ربك، وتَنْجُ من العذاب الأليم نفسُك، وإن تركت ذلك فأنت من الذين استمتعوا بخلاقهم، وأذهبوا في الحياة الدنيا طيباتهم». ثم قال ابن الأزرق: «يا عبيدة بن هلال صف لهذا الإنسان ومن معه أمرنا الذي نحن عليه والذي ندعو

---

(١) الكامل ٣: ٣٣٥.

الناس إليه». فقال ابن هلال مخاطباً ابن الزبير: «أما بعد، فإن الله بعث محمداً ﷺ يدعو إلى عبادة الله وإخلاص الدين، فدعا إلى ذلك، فأجابه المسلمون، فعمل فيهم بكتاب الله وأمرِه حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه، واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر، فكلاهما عمل بالكتاب وسنة رسول الله فالحمد لله رب العالمين، ثم إن الناس استخلفوا عثمان بن عفان فحمى الأحماء، وآثر القربى، واستعمل الغنى، ورفع الدرة، ووضع السوط، ومزق الكتاب، وحقر المسلم، وضرب منكري الوجود، وآوى طريد رسول الله ﷺ، وضرب السابقين بالفضل، وسَيَّرَهم وحرمهم، ثم أخذ فيء الله الذي أفاءه عليهم فقسمه بين فساق قريش ومُجان العرب، فسارت إليه طائفة من المسلمين أخذ الله ميثاقهم على طاعته لا يبالون في الله لومة لائم فقتلوه، فنحن لهم أولياء. ومن ابن عفان وأوليائه برآء، فما تقول أنت يا ابن الزبير»[1]؟.

فرد ابن الزبير على كل اتهاماتهم ودافع عن عثمان بن عفان وقال: «هو لكل خير أهل، وأنا أشهدكم ومن حضر أني ولي لابن عفان في الدنيا والآخرة، وولي أوليائه وعدو أعدائه. قالوا: فبرىء الله منك يا عدو الله، قال: فبرىء الله منكم يا أعداء الله».

بعد هذا اللقاء ترك الخوارج ابن الزبير وانسحبوا من مكة،

---

(١) الطبري ٥: ٥٦٥.

وتوجه قسم منهم بزعامة نافع بن الأزرق وعبد الله بن صفار وعبد الله بن إباض إلى البصرة، وانطلق قسم بزعامة أبي طالوت إلى اليمامة، ثم استلم نجدة بن عامر الحنفي من أبي طالوت زعامة هؤلاء.

قدم نافع وأتباعه البصرة، وتذاكروا فضيلة الجهاد وذكروا إخواناً لهم في السجون، فاستغلوا انشغال أهل البصرة بحرب قبلية بين الأزد وربيعة وتميم، وغياب ابن زياد عن سدة الحكم، بفراره إلى الشام، فاقتحموا المدينة، وكسروا أبواب السجن، وأطلقوا سراح إخوانهم، ورغم انفصال الإباضية والصفارية عن ابن الأزرق لاختلافهم في الاجتهادات، فقد اشتدت شوكته، وكثرت جموعه، وأقام بالأهواز يجبي الخراج ويتقوى به.

شعر أهل البصرة بخطر الخوارج لما اشتد عودهم، وخافوا من غدرهم فاصطلحوا فيما بينهم واجتمعوا على عبد الله بن الحرث أميراً لهم ريثما يرسل ابن الزبير والياً للبصرة، وأخذوا يستعدون للدفاع عن أنفسهم وتجهيز جيش لقتال الخوارج، فلما سمعوا بقدوم ابن الأزرق نحو البصرة خرجوا للقائه، وحدثت بين الطرفين معارك عدة، أشهرها وقعة الدولاب التي قتل فيها زعيم الخوارج ابن الأزرق في جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ، وتكبد أهل البصرة خسائر فادحة، وهزم جيشهم، وقتل قائده، وكتبوا بذلك لابن الزبير فعين

الحارث بن أبي ربيعة، وعزل عبد الله بن الحرث، فلما قدم الوالي الجديد أشار عليه أشراف البصرة أن يتولى حرب الخوارج المهلبُ بن أبي صفرة، لما عُلم فيه من الشجاعة والمعرفة بالحرب، ولكن المهلب اعتذر لأن ابن الزبير ولاه خراسان، فكتب الحارث بذلك لعبدالله فأرسل عبد الله إلى المهلب كتاباً جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله بن الزبير إلى المهلب بن أبي صفرة. سلامٌ عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن الحارث بن عبد الله كتب إليَّ أن الأزارقة المارقة، أصابوا جنداً للمسلمين كان عددهم كثيراً، وأشرافهم كثيراً، وذكر أنهم قد أقبلوا نحو البصرة، وقد كنت وجهتك إلى خراسان وكتبت لك عهداً، وقد رأيت حيث ذكر هذه الخوارج أن تكون أنت تلي قتالهم، فقد رجوت أن يكون ميموناً طائرك، مباركاً على أهل مصرِك والأجر في ذلك أفضل من المسير إلى خراسان، فسر إليهم راشداً فقاتل عدو الله وعدوك، ودافع عن حقك وحقوق أهل مصرك، فإنه لن يفوتك من سلطاننا خراسان ولا غير خراسان إن شاء الله والسلام عليك ورحمة الله»[1]. لكن المهلب ما كان ليضحي بولاية خراسان التي حصل عليها، فلما قرأ الكتاب قال: «والله لا أسير إليهم إلا أن تجعلوا لي ما غلبت عليه، وتقطعوني من بيت المال ما أقوي به من معي» فأجابوه إلى ذلك وكتبوا له كتاباً

---

(١) الطبري ٥: ٦١٥، الأخبار الطوال ٢٧١.

وأرسلوا إلى ابن الزبير فأمضاه . فاختار المهلب الأشداء الأقوياء من الجند، وخرج بجيش كبير ولقي الخوارج عند الجسر الأصغر للبصرة، وخاض معهم عدة حروب دلت على أنه قائد قدير، وقد تعرضت جيوشه لعدة هجمات من الخوارج الذين اشتهروا بالجرأة والبطولة، وهزموا فرقاً من جيشه، ودارت معركة طاحنة سقط فيها العديد من القتلى من كلا الطرفين، وأخيراً استطاع المهلب ببراعته القيادية وثبات أبنائه وشجاعة جنده أن يتغلب على الخوارج في وقعة سلي وسلبري في فارس سنة ٦٦ هـ[1]، ولاذ من بقي بالفرار بعد أن تكبدوا خسائر فادحة بالرجال بلغ عددهم سبعة آلاف مقاتل على رأسهم قائدهم عبيد الله بن الماحوز، وابتعدوا باتجاه كرمان في بلاد فارس ليعيدوا تنظيم صفوفهم، وأقام المهلب بالأهواز حتى قدم مصعب بن الزبير والياً على العراق عام ٦٧ هـ فأقره على قتال الخوارج، لأنه نجح في دحر جيوشهم والحد من تمردهم، ولما اشتد خطر الأمويين في شمال العراق وأرسل عبد الملك بن مروان الجيوش لاسترداد العراق، أرسل مصعب المهلب والياً إلى الموصل ليكون درعاً له بوجه الأمويين، وأوكل حرب الخوارج لعمر بن عبيد الله، فشدد حملاته عليهم وأبلى في قتالهم بلاء حسناً، فوسع الخوارج دائرة معاركهم حتى شملت وسط العراق وهاجموا المدائن وأفسدوا البلاد، فاشترك بقتالهم

---

(١) يرد في بعض المصادر أن هذه المعركة كانت سنة ٦٥ هـ (الطبري ٥: ٦٢٢).

الحرث بن أبي ربيعة، وإبراهيم بن الأشتر وخرج مصعب لقتالهم أيضاً، وقتل عدد كبير من رجال الطرفين، فقال الحرث بن أبي ربيعة لمصعب: إن الخوارج ليس لهم إلا المهلب، فأرسل مصعب ابن الأشتر إلى الموصل واستدعى المهلب وأعاده لحرب الخوارج. فاشتبك معهم في قتال عنيف عند منطقة سولاف واستمر القتال بينهم ثمانية أشهر مما أنهك قوى الطرفين، وبقي المهلب يتصدى للخوارج حتى مقتل مصعب، وسيطرة ابن مروان على العراق فبايعه هو وجنده.

أما خوارج اليمامة بقيادة نجدة الحروري، فكانوا بعيدين عن ساحة المعارك بالعراق بل يمموا وجوههم شطر شبه جزيرة العرب، وامتد نفوذهم إلى البحرين وحضرموت وصنعاء، كما هددوا أهل الطائف، فشاركوا ابن الزبير نفوذه في البلاد، ولم يستطع التصدي لهم خوفاً من الخطر الجاثم في بلاد الشام، ولما أراد نجدة أداء فريضة الحج سنة ٦٨ هـ قبل ابن الزبير عرض نجدة للصلح على أن يصلي كل واحد بأصحابه، ويقف بهم في عرفات ويكف بعضهم عن بعض، وذكرنا أنه اجتمع في ذلك العام أربعة ألوية على عرفات أحدها لواء نجدة الحروري وأصحابه.

اشتد بأس أصحاب نجدة، وبدؤوا يتعرضون للقوافل التجارية وغيرها، وهددوا الأمن في المنطقة حتى إنهم تعرضوا لقافلة تحمل أموالاً وأرزاقاً من البحرين لابن الزبير ـ عندها أرسل مصعب عام

٦٩ هـ جيشاً بقيادة عبد الله بن عمير الليثي الأعور لقتال نجدة ورجاله، لكن الخوارج تغلبوا على ابن عمير وأوقعوا في رجاله خسائر فادحة، ولم يتوفر لمصعب أن يجدد حملاته إلى منطقة اليمامة لانشغاله بأحداث العراق وما يتهدده من أخطار هناك.

مصعب في العراق:

عين ابن الزبير أخاه مصعباً والياً على المدينة أواخر عام ٦٥ هـ، فأثبت جدارة كبيرة في إدارتها، فلما تدهورت الأوضاع الأمنية في العراق واستفحل أمر الخوارج، وتمرد المختار بالكوفة، أرسل عبد الله أخاه مصعباً والياً إلى العراق.

توجه مصعب إلى البصرة عام ٦٧ هـ فأقر المهلب على قتال الخوارج بعد أن أثبت مقدرة فائقة في حربهم، وانصرف مصعب لقتال المختار، الذي انتشرت دعوته بالكوفة، وأصبح يشكل خطراً على سلطة ابن الزبير، وتغلبت قوات مصعب على رجال المختار في معركة المذار وقُتل المختار سنة ٦٧ هـ، وبعد مقتل المختار تمكن مصعب من العراق وعين الولاة في الأمصار وكسب طاعة إبراهيم بن الأشتر وجعله على الموصل، وبذلك تحققت أمنيته بحكم العراق[١]. لكن

---

(١) مرت معنا أمنيات ابن الزبير وإخوته وعبد الملك بن مروان في فصل خلافة عبدالله بن الزبير.

أمير المؤمنين عبد الله أرسل سنة ٦٨ هـ ابنه حمزة والياً إلى البصرة وعزل عنها أخاه مصعباً بإيحاء من بعض أهلها، بعد أن استقرت الأحوال وخمدت الفتن. وربما كان عبد الله يطمئن لوجود ابنه أكثر من أخيه في ولاية بعيدة عنه ولها أهمية كبيرة عنده، ويظهر ذلك في قوله لما اضطر لعزل ابنه بعد سنة من إدارته: «أبعده الله أردت أن أباهي به بني مروان، فنكص»[١].

أما أهل البصرة فقد عابوا على حمزة بن عبد الله بن الزبير خفته، وسوء إدارته، فكان يجود بكل ما يملك وأحياناً يمنع القليل مَن يستحق الكثير، وأساء لأشراف البصرة، فكتب الأحنف بن قيس إلى ابن الزبير يسأله أن يعزله عنهم ويعيد مصعباً إلى عمله، فلبى ابن الزبير طلب أهل البصرة، وعاد مصعب إلى عمله هناك، وثبّت عماله في أمصارهم وجعل الحرث بن أبي ربيعة عاملاً على الكوفة.

وفي سنة ٧١ هـ قدم مصعب حاجاً إلى مكة وحمل معه مالاً كثيراً، ورافقه وجوه أهل العراق للاجتماع بعبدالله بن الزبير، وأعلم مصعب أخاه بكل الإجراءات الإدارية التي نفذها بالعراق، فأقره على كل ما صنع إلا ابن الأشتر لم يمض له ما جعله عليه. وقال له: «أتراني أحب الأشتر وهو الذي جرحني هذه الجراحة - يشير إلى معركة الجمل - ثم قال مصعب لأخيه: يا أمير المؤمنين قد جئتك

---

(١) الكامل ٣: ٣٨٨.

برؤساء أهل العراق وأشرافهم، كلٌّ مطاع في قومه وهم الذين سارعوا إلى بيعتك، وقاموا بإحياء دعوتك، ونابذوا أهل معصيتك وسعوا في قطع عدوهم، فأعطهم من هذا المال. فقال عبد الله لأخيه: جئتني بعبيد أهل العراق وتأمرني أن أعطيهم مال الله، لا أفعل وأيم الله لوددت أني أصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم عشرة من هؤلاء برجل من أهل الشام. لذلك عاد الزعماء العراقيون والحقد يملأ نفوسهم وقد عبر أحدهم عن مشاعرهم فقال لابن الزبير قبل أن يغادره: أحببناك نحن فأحببت أنت أهل الشام وأحب أهل الشام عبد الملك»[1].

عاد مصعب إلى العراق وتصدى هناك لعبد الملك الذي قال عند قدومه للعراق: «. . .لقد كتب كثير من أشراف العراق يدعونني إليهم». ويدل هذا الموقف على ضعف سياسة ابن الزبير فكان ببخله يدفع أنصاره للانضمام إلى أعدائه، وإذا قلنا إنه لا يؤمن بلغة المال للتعامل فإنه لم يكن كذلك في شبابه فقد ذكرنا عرضه لعبدالله بن عمر بعد وقعة صفين والتحكيم عندما قال له: اذهب إلى عمرو بن العاص فارشه. وبقي مصعب بالعراق حتى قتل بمعركة دير الجاثليق سنة ٧١ هـ.

---

(١) الإمامة والسياسة ٢: ١٧، ابن عبد ربه ١: ١٢٨، عبد الملك بن مروان ١٥٣.



صراع بين خليفتين

خلافة عبد الملك بن مروان:

استلم عبد الملك الخلافة من والده في رمضان سنة ٦٥ هـ وحكم في دولة ثابتة الجذور، ذات تاريخ وأصول منذ أسسها معاوية بن أبي سفيان. ولكنها كانت مهددة بريح تعصف بها من الخارج والداخل، فكانت تهدده غارات الروم البيزنطيين من الشمال، ومنافسه عبد الله يحصره من الجنوب والشرق، وعندما استلم عبد الملك الحكم، كان سلطانه يمتد في بلاد الشام ومصر، وله جيش يحارب في الحجاز بقيادة حبيش بن دلجة، أرسله مروان إلى هناك وباءت حملته بالفشل، وانشغل عبد الملك بعدها بتثبيت أركان ملكه قبل أن يخوض حرب تصفية مع ابن الزبير.

أما ابن الزبير فكان سلطانه يمتد على مساحة واسعة، تشمل الحجاز والعراق واليمن وخراسان، وأخذ البيعة بالخلافة قبل عبد الملك وأبيه مروان لكن لم تكن سلطته ونفوذه ثابتي الأركان، فعامله على خراسان عبد الله بن حازم كان حاكماً بأمره، وبلاد اليمن لا تعرف الاستقرار ويزيدها كثرة تغيير الولاة فوضى

واضطرابا[١]، وبلاد العراق رغم جهود مصعب في نشر الأمن هناك، كان خطر الخوارج يقض مضجع الناس. ولم تكن دولة ابن الزبير ذات جذور عميقة فهو المؤسس الأول لها. ولم يكن عبد الله يتقن فن التعامل مع الناس وكسب الأنصار فقد رد زعماء العراق حاقدين ناقمين بعد أن بخل عليهم بالعطاء وندد بهم. ولم يستطع كسب زعيم الشيعة محمد بن الحنفية، بل انصبت نقمة ابن الحنفية والشيعة عليه لسوء معاملته لهم، ولقتل الأسرى من أصحاب المختار بعد أن استسلموا لمصعب. وقسم من أهل المدينة لم تكن قلوبهم مع عبد الله، إنما يقفون إلى جانبه نقمة على الأمويين. ولم تكن له، بعد أن بلغ السبعين، براعة عبد الملك في قيادة الجيوش وخوض المعارك والحروب، فلم يخرج لحرب ولو دعت الضرورة لذلك، وكانت الهوة

(١) ورد في كتاب بهجة الزمن في تاريخ اليمن: «... وعندما ظهر ابن الزبير بمكة كان على اليمن الضحاك بن فيروز من عهد معاوية، وقد أطاع أهل اليمن ابن الزبير إلا القليل منهم، وعزل ابن الزبير الضحاك بعبدالله بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فأقام سنة فعزله بعبدالله بن أبي وداعة السَّهمي فمكث سنة وثمانية أشهر ثم عزله بأخيه عبيدة بن الزبير فمكث خمسة أشهر وعزله وولى قيس بن يزيد السعدي أحد بني تميم ومكث عشرة أشهر ثم عزله واستعمل بعده ولاة يقضون الأربعة الأشهر والخمسة ويعزلهم حتى قُتل سنة ثلاث وسبعين، بينما بعث الحجاج بن يوسف الذي كان نائباً لعبد الملك على اليمن والحجاز واليمامة والبحرين، بعث أخاه محمد بن يوسف على اليمن فأقام عليها تسع عشرة سنة إلى آخر أيام عبد الملك» (ص٢٥).

كبيرة بينه وبين جنده وشعبه، وقد عاب عليه عبد الملك ذلك في خطبته بالكوفة عندما دخلها واستولى عليها، لذلك لم تكن المعادلة بين الخليفتين متكافئة لا من حيث السمعة في الأوساط العامة، ولا من حيث السياسة أو القدرة على القيادة العسكرية.

اشتهر عبد الملك بذكاء خارق وسياسة مرنة وبراعة بالحروب والتخطيط لها، وقد مر معنا وصف دقيق للخطة التي وضعها لوقعة الحرة، ورأى عبد الملك في صراعه مع ابن الزبير أن يبدأ باسترداد العراق لما له من أهمية كبيرة من الناحيتين البشرية والاقتصادية، فالعراق بوابة الشرق والطريق إلى بلاد فارس وخراسان وخيراته الاقتصادية وموارده المالية كثيرة جداً، وكان عبد الملك حينما يتحدث عن رغبته باسترداد العراق يقول: «الشام بلد قليل المال ولا آمن نفاذه»[1]. وباسترداد العراق يقضي عبد الملك على مصعب وهو الساعد الأيمن لعبد الله، وفي ذلك خسارة كبيرة لابن الزبير وإضعاف لقوته مما يساعد ويمهد لحربه بالحجاز أو حصاره هناك حتى يستسلم. ولو بدأ عبد الملك بحرب عبد الله في الحجاز قبل العراق لكان وضعه حرجاً فهو بين قوتين، جيش عبد الله في الحجاز وقوات مصعب في العراق التي يمكن أن تتقدم إلى الشام لنجدة جند الحجاز. وقد يكون عبد الملك توخى من القتال في العراق عدم القتال في البيت الحرام،

---

(١) الكامل ٤: ١٠.

ولا ننسى أن عبد الملك نشأ وترعرع في المدينة وهو يعرف نقمة أهلها على الأمويين لذلك توجه بأنظاره نحو العراق.

الاستيلاء على العراق:

خرج عبد الملك بحملة عسكرية في صيف ٦٩ـ٧٠ هـ إلى الجزيرة لاحتلال قرقيسيا، فهي العقبة الكؤود على طريقه إلى العراق لأنها ذات حصون وقلاع، ويحكمها زفر بن الحارث الموالي لابن الزبير، وما إن خرجت الحملة من دمشق حتى بلغ عبد الملك نبأ الثورة التي اشتعلت في دمشق بقيادة عمرو بن سعيد بن العاص الذي كان ينقم على الأسرة المروانية منذ أن نقض مروان بن الحكم بنود مؤتمر الجابية الذي انعقد سنة ٦٤ هـ وجعل ولاية العهد من بعد مروان لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد، فجعلها مروان من بعده لولديه عبد الملك ثم عبد العزيز، واضطر عبد الملك أن يعود بحملته ويحاصر مدينة دمشق ويلجأ إلى الطرق الدبلوماسية حتى وقع صلحاً مع عمرو ودخل العاصمة.

أدرك عبد الملك بعد هذه المؤامرة أنه لن يستطيع الخروج لأي حرب طالما الأخطار تهدده في عاصمته، فدبر مكيدة تخلص بها من عمرو، ونفى إخوته خارج دمشق وقضى على ثورة الجراجمة في لبنان، وبذلك تخلص من الخطر الداخلي. كما عقد هدنة مع الامبراطور

البيزنطي جوستنيان الذي كان يهدد حدوده الشمالية على أن يدفع للبيزنطيين مبلغاً قدره ألف دينار كل جمعة[1]. وبذلك ضمن خطوطه الخلفية والجانبية وتفرغ لحرب مصعب.

خرج عبد الملك مجدداً عام ٧١ هـ باتجاه الجزيرة على رأس جيش يحمل معه أدوات الحصار والمجانيق ونزل بقرقيسيا، فجرى بينه وبين زفر بن الحارث قتال شديد لم يسفر عن نتيجة حاسمة، فلجأ عبد الملك للدبلوماسية وفتح باب المفاوضات التي أسفرت عن صلح بين الطرفين على أن يحتفظ زفر بطاعته لابن الزبير حتى وفاته، بينما انضم رجاله وابنه إلى جيش عبد الملك، وتابع عبد الملك مسيره حتى وصل مَسْكِن قرب معسكر مصعب.

لما علم مصعب بمسير عبد الملك إلى الجزيرة، أرسل إلى المهلب وهو يقاتل الخوارج يستشيره، فقال له المهلب: «اعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتَبَهم فلا تبعدني عنك، فأجابه مصعب: إن أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على قتال الخوارج وهم قد بلغوا سوق الأهواز، وأنا أكره إن سار عبد الملك إلي أن لا أسير إليه، فاكفني هذا الثغر ـ يعني الخوارج ـ فعاد المهلب إليهم، وسار مصعب إلى الكوفة واستدعى ابن الأشتر من الموصل لينضم إليه في قتال عبد الملك، ثم توجه نحو مَسْكن وعسكر هناك.

---

(١) عبد الملك بن مروان ٢٠٧، الكامل ٤ : ٢.

كانت قوات مصعب تحارب على جبهتين: الخوارج والأمويين، كما أن مصعباً لم يكن يأمن رجال جيشه فقلوبهم ليست معه بل جماعة كاتبت عبد الملك وكاتبهم وجماعة تود العودة إلى بلادها خوفاً على أهليهم من خطر الخوارج، فلم يكن وضعه العسكري يشجع كثيراً على القتال، وقيل إن ابن خازم والي خراسان لما أخبر بمسير مصعب لقتال عبد الملك قال: أمعه عمر بن عُبيد بن معمر؟ قيل: لا استعمله على فارس، قال: أفمعه المهلب بن أبي صفرة؟، قيل: لا استعمله على الموصل، قال: أفَمَعه عَبّاد بن الحصين؟ قيل: لا استخلفه على البصرة، فقال: وأنا بخراسان[1]:

خذيني فجرّيني جَعارِ وأبشري بلَحْم امرئ لم يشهدِ اليومَ ناصره

يضاف إلى ذلك أن مصعباً كانت تنقصه الخبرة القيادية في المعارك رغم جرأته وشجاعته في القتال، وقد شهد عبد الملك له بذلك فكان يقول عنه: «شجاع من بيت شجاعة ولكنه لا علم له بالحرب ـ يحب الخفض ـ ومعه من يخالفه ومعي من ينصح لي»[2].

لما التقى الجيشان عند مَسْكِن بدأ عبد الملك يكاتب أمراء أهل العراق ويغريهم بالمال والإمارة ليفتنهم ويبعدهم عن جيش مصعب ويدعوهم للانضمام إليه. وكان كلٌّ من الأمراء يخفي أمره عن

---

(١) الطبري ٦ : ١٥٨، وكان ذلك قبيل إعادته لحرب الخوارج.
(٢) الكامل ٤ : ١٠.

مصعب، إلا إبراهيم بن الأشتر لما جاءه كتاب عبد الملك أطلع مصعب عليه وفيه دعوة عبد الملك للأشتر أن ينضم إليه ويمنّيه بعروض كثيرة، فقال ابن الأشتر: «ما كنت لأتقلد الغدر والخيانة ووالله ما عند عبد الملك من أحد من الناس بأيأس منه مني» وأشار على مصعب بقتل كل الأمراء عنده لسكوتهم عن كتب عبد الملك، فرفض خوف إثارة الناس حوله وهو في حالة حرب، ولكنه قال: «يرحم الله أبا بحر - الأحنف بن قيس - إن كان ليحذرني أهل العراق كأنه كان ينظر إلى ما نحن فيه».

وطمع عبد الملك بإغواء مصعب نفسه، فعرض عليه أن يدع دعاءه لأخيه، ويدع عبد الملك دعاءه لنفسه، ويجعل الأمر شورى، فأجابه مصعب: «السيف بيننا»، فأنفذ عبد الملك إليه أخاه محمد بن مروان، فعرض عليه الأمان وولاية العراق أبداً ما دام حياً ومليوني درهم صلة، على أن يرجع عن القتال، فأبى مصعب. والتحم الجيشان بقتال عنيف وانفض قسم من رجال مصعب عنه، فنادى ابنه عيسى وقال له: «يا بني اركب أنت ومن معك إلى عمك بمكة فأخبره ما صنع أهل العراق، ودعني فإني مقتول». لكن ابنه رفض تركه، وعرض عليه الانسحاب جميعاً إلى البصرة، أو الالتحاق بأمير المؤمنين بمكة. فقال مصعب: «والله لا تتحدث قريش أني فررت بما صنعت ربيعة من خذلانها حتى أدخل الحرم منهزماً، ولكن أقاتل فإن قُتلتُ

فلعمري ما السيف بعار، وما الفرار بعادة لي ولا خلق». وبقي عيسى إلى جانب والده يقاتل معه حتى قتل. ولم يبق مع مصعب إلا سبعة أنفس، وقد أثخنته الجراح فقاتل حتى قُتل بمعركة دير الجاثليق في جمادى الآخرة من سنة ٧١ هـ[1]. ولما جيء برأسه إلى عبد الملك سجد وقال: «متى تغذو قريش مثلك؟ واروه، فقد والله كانت الحرمة بيننا وبينه قديمة، ولكن الملك عقيم. وأمر بدفن ابنه عيسى معه. ورغم العداء السياسي بسبب السلطة والحكم كان لمصعب عند عبد الملك مكانة كبيرة وكان يصفه بأشد الرجال، (لأن مصعباً كانت عنده عقيلتا قريش سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة. ثم هو أكثر الناس مالاً، جَعَلتُ له الأمان وولاية العراق وعَلم أنني سأفي له، للمودة التي كانت بيننا، فحمى أنفاً وأبى وقاتل حتى قُتل). وكان مصعب أحب أمراء العراق لأهل العراق، يعطيهم عطاءين، عطاء للشتاء وعطاء للصيف.

وبعد المعركة دعا عبد الملك جند العراق إلى بيعته فبايعوه، وسار حتى دخل الكوفة وأخذ بيعة الناس فيها، وصعد منبر الكوفة وخطب فقال: «إن عبدالله بن الزبير لو كان خليفة كما يزعم لخرج فآسى

(١) تختلف الأخبار في تحديد سنة مقتل مصعب فهي في الطبري والكامل سنة ٧١، وفي تاريخ الإسلام للذهبي وترجمة مصعب في طبقات ابن سعد سنة ٧٢.

بنفسه ولم يغرز ذَنَبه في الحرم»[١]. وهذا ما كان يعيبه الكثيرون على ابن الزبير.

لما بلغ المهلب بن أبي صفرة مقتل مصعب، بايع هو وجنده عبد الملك، أما عبد الله بن خازم والي خراسان فقد بقي على عهده لابن الزبير حتى قتل. وكان عبد الملك عرض عليه الأمان وإمارة خراسان تبقى بيده لسبع سنين مقابل بيعته له فرفض.

وصل نبأ مقتل مصعب إلى أخيه في مكة، فاشتد حزنه عليه فهو ساعده الأيمن، وبمقتل مصعب خسر عبد الله العراق بموارده ورجاله، وانتقلت خيراته إلى خصومه. وحاول عبد الله أن يخفي خبر مقتل مصعب حتى لا تضعف معنويات جنده، ولكن ما لبث أن انتشر الخبر في أسواق مكة وتحدث به الجميع. عندها توجه عبد الله إلى المسجد فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم سكت، فجعل لونه يحمر مرة ويصفر مرة، فقال رجل من قريش لرجل إلى جانبه: «ماله لا يتكلم فوالله إنه للبيب الخطباء!، قال: لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشتد ذلك عليه، وغير ملوم. ثم تكلم عبد الله فقال: الحمد الله الذي له الخلق والأمر، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، وإنه لم يذلل الله من كان الحق معه وإن كان فرداً، ولم يعزز من كان وليه الشيطان وإن كان الناس

---

(١) الطبري ٦: ١٦٤.

معه طراً، ألا وإنه قد أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا، أتانا مقتل مصعب رحمه الله، أما الذي أفرحنا فعلمنا أن قتله شهادة، وأما الذي أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة، يرعوي بعدها ذو الرأي الجميل إلى الصبر وكريم العزاء، وما مصعب إلا عبد من عبيد الله، وعون من أعواني ـ ألا وإن أهل العراق أهل الغدر والنفاق أسلموه وباعوه بأقل ثمن، فإن يُقتل، فمه، والله ما نموت على مضاجعنا كما يموت بنو أبي العاص، والله ما قُتل رجل منهم في زحف في الجاهلية ولا في الإسلام، ولا نموت إلا قعصاً بالرماح وتحت ظلال السيوف. ألا إن الدنيا عارية من الملك إلا على الذي لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه، فإن تُقبل لا آخذها أخذ البطر. وإن تدبر لم أبكِ عليها بكاء الضرع المهين، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»[١].

دراسة خطبة عبد الله تبين لنا رأيه في أهل العراق وخصمه عبد الملك وأخيه مصعب، فأهل العراق هم أهل الغدر والنفاق، وهذا يفسر رفضه إكرام أشرافهم عندما حضروا مع مصعب إلى مكة. ويُشهِّر بعبد الملك وبني أبي العاص أنه ما قُتل رجل منهم في زحف، أما بالنسبة لمصعب فيعتز ببطولته ويفخر بأسرته.

---

(١) الكامل ٤ : ١٦، العقد الفريد ٤ : ١٧١.

حملات الحجاز :

لما بويع عبد الملك بالشام، أرسل عدة حملات إلى الحجاز كما أرسل مثلها إلى الجزيرة، ولم يكن الهدف من هذه الحملات السيطرة على الحجاز، وإنما لتشغل ابن الزبير حتى لا يبادر فيمد ولاته في العراق بالنجدات، بل اضطر ابن الزبير أن يستنجد عام ٦٥ هـ بواليه على البصرة الحرث بن أبي ربيعة ليتصدى لحملة حبيش، واستطاع الزبيريون إلحاق هزيمة منكرة بجيش عبد الملك في وقعة الربذة فعاد إلى الشام مهزوماً، ثم أرسل عبد الملك حملة بقيادة عبد الملك بن الحارث بن الحكم إلى وادي القرى لتغطية ضعفه وإشغال عدوه، بينما انشغل هو بإعادة تنظيم قواته وتثبيت ملكه، وكان لحملة وادي القرى أثرها على العلاقة بين المختار وابن الزبير، وذكرنا المعركة التي وقعت بينهما عند الرقيم بينما عاد جيش عبد الملك إلى بلاده دون قتال.

ومن الحملات التي أرسلها عبد الملك إلى الحجاز حملة بقيادة عروة بن أنيف وأمره أن لا يدخل المدينة. فلما وصلها عروة هرب منها الحرث بن حاطب عامل ابن الزبير، وصار عروة يدخل المدينة يوم الجمعة فيصلي بالناس ثم يعود إلى معسكره خارجها، واستمر على ذلك شهراً كاملاً ومدينة الرسول مدينة مفتوحة لا يسيطر عليها أحد. ثم طلب عبد الملك من عروة العودة إلى دمشق. ولما حاول ابن

حاطب العودة للمدينة ثانية عزله ابن الزبير وأرسل مكانه جابر بن الأسود وأمره أن يتصدى لرجال عبد الملك.

لما توجه عبد الملك للاستيلاء على العراق أرسل حملة إلى الحجاز بقيادة طارق بن عمرو وأمره أن ينزل بأيلة على حدود الحجاز ويمنع عمال ابن الزبير من الانتشار في المنطقة، وتمت لطارق السيطرة في شمال الحجاز، فعزل ابن الزبير عامله على المدينة واستعمل طلحة بن عبيدالله بن عوف وهو آخر والٍ لابن الزبير على المدينة.

تشير كثرة الحملات العسكرية إلى بلاد الحجاز في مطلع حكم عبد الملك إلى الاضطراب الذي كانت تعاني منه بلاد الحجاز وضعف سلطة عبد الله خارج مكة. فلما تم لعبد الملك قتل مصعب بالعراق، هان عليه أمر الحجاز وبدأ يفكر بالاستيلاء عليه بعد أن أصبح ابن الزبير وحيداً لا معين له وتقلصت دولته فأصبحت محصورة بالحجاز فقط، وباتت موارده الاقتصادية قليلة وقوته البشرية العسكرية محدودة.

لم يخرج عبد الملك بنفسه لقتال عبد الله كما فعل بالعراق، لأنه يعرف نقمة أهل الحجاز على الأمويين، كما أن آثار وقعة الحرة وذكرياتها لا زالت في أذهان أهل المدينة، فآثر البقاء بالشام ليكون رديفاً للحملة التي ستتوجه إلى الحجاز.

* * *

نهاية ابن الزبير

لما قتل عبد الملك مصعباً في العراق، هان عليه أمر عبد الله في مكة، وفكر بإرسال جيش لقتاله هناك. فلما دخل الكوفة جاءه الحجاج بن يوسف الثقفي وقد أدرك رغبة الخليفة فقال له: «قد رأيت في المنام أني أخذتُ عبد الله بن الزبير فسلخته، فابعثني إليه وولّني قتاله» فبعثه في ألفين من أهل الشام وكتب معه أماناً لابن الزبير ومن معه إن أطاعوا.

سار الحجاج في جمادى الأولى من سنة ٧٢ هـ يريد مكة، فنزل بالطائف، وكان يرسل الخيل إلى عرفة، ويبعث ابن الزبير أيضاً جنده فيقتتلون بعرفة بعيدين عن المسجد الحرام الذي يحرم القتل فيه، فتنهزم خيل ابن الزبير في كل ذلك وتعود خيل الحجاج بالظفر. ثم كتب الحجاج لعبد الملك يستأذنه في دخول الحرم وحصر ابن الزبير ويصف له ضعفه وتفرق أصحابه ويستمده. فكتب عبد الملك إلى طارق بن عمرو الذي كان يرابط شمال الحجاز يأمره أن يلحق بالحجاج، فقدم المدينة ومعه خمسة آلاف من أصحابه، وأخرج منها عامل ابن الزبير، ثم لحق بالحجاج الذي توجه إلى مكة في ذي القعدة وأحرم للحج، وحج بالناس إلى عرفة في ذي الحجة من نفس العام،

لكنه لم يطف بالكعبة ولم يَسْعَ بين الصفا والمروة لأن ابن الزبير منعه من ذلك. كما لم يحج ابن الزبير وأصحابه لأنهم لم يستطيعوا الوقوف بعرفة ولم يرموا الجمار، وطبعاً الحج عرفة[1].

الحصار الثاني لمكة:

طوق الحجاج بجنده مكة ونصب المنجنيق على جبل أبي قبيس ورمى به الكعبة، فأرسل عبد الله بن عمر إليه يقول: «اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فإنك في شهر حرام وبلد حرام، وقد قَدِمَت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً، وإن المنجنيق قد منعهم عن الطواف، فاكفف عن الرمي حتى يقضوا ما يجب عليهم بمكة». فبطل الرمي حتى عاد الناس من عرفات وطافوا وسعوا، ولم يمنع ابن الزبير الحاج من الطواف والسعي، فلما فرغوا من طواف الزيارة نادى منادي الحجاج: «انصرفوا إلى بلادكم فإنا نعود بالحجارة على ابن الزبير الملحد». وكان أول ما رُمِي بالمنجنيق إلى الكعبة أرعدت السماء وأبرقت، فأعظم ذلك أهل الشام وأمسكوا عن الرمي، فأخذ الحجاج حجارة المنجنيق بيده فوضعها فيه ورمى بها معهم تشجيعاً لهم، وكانت الحجارة تقع بين يدي ابن الزبير وهو يصلي فلا ينصرف. وكان أهل الشام يقولون:

---

(١) الكامل ٤: ٢٢.

يـا ابـن الـزبير طـالمـا عصيكـا وطـــالمــــا عنيتنــــا إليـــك
لتجـــزيـــن بـــالـــذي آتيكـــا

وجاء قوم من الأعراب ابن الزبير فقالوا: «قدمنا للقتال معك، فنظر فإذا مع كل امرىء منهم سيف كأنه شفرة وقد خرج من غمده، فقال: يا معشر الأعراب لا قرَّبكم الله فوالله إن سلاحكم لرث، وإن حديثكم لغث، وإنكم لقتال في الجدب، أعداء في الخصب» فتفرقوا عنه ولم يزل القتال قائماً[1].

وغلت الأسعار في مكة نتيجة الحصار وحبس الميرة عن المكيين، فأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح ابن الزبير فرسه وقسم لحمها في أصحابه، وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم ومُدُّ الذرة بعشرين درهماً. ومع شدة الحصار كانت بيوت ابن الزبير مملوءة قمحاً وشعيراً وذرة وتمراً، وكان جند الحجاج ينتظرون نفاذ ما عنده، وكان ابن الزبير لا ينفق منه إلا ما يمسك الرمق وكان يقول ليبرر إمساكه: «أنفُس أصحابي قوية ما لم يفن». ولما طال الحصار واشتدت الأزمة تفرق الناس عنه وخرج نحو عشرة آلافٍ إلى الحجاج يطلبون الأمان فيهم ابنا عبد الله: حمزة وخبيب، وقال عبد الله لابنه الزبير: «خذ لنفسك أماناً كما فعل أخواك، فوالله إني لأحب بقاءكم» فقال: ما كنت

---

(١) الكامل ٤: ٢٣.

لأرغب بنفسي عنك. فصبر معه فقتل[1].

لما تفرق عن ابن الزبير أصحابه، خطب الحجاج بالناس وقال: «قد ترون قلة من مع ابن الزبير وما هم عليه من الجهد والضيق». ففرحوا واستبشروا وتقدموا فملؤوا ما بين الحجون والأبواء، وأرسل الحجاج إلى ابن الزبير يخيره بين ثلاث: إما أن يذهب في الأرض حيث شاء، أو يبعثه إلى الشام مقيداً بالحديد، أو يقاتل حتى يقتل[2]، فدخل عبد الله على أمه أسماء وقال[3]: «يا أماه قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي إلا اليسير، ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك؟، فقالت: أنت أعلم بنفسك؛ إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو، فامض له فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك تلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا، فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك، وإن قلتَ: كنتُ على حق فلما وهن أصحابي ضعفتُ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، كم

---

(١) الكامل ٤: ٢٣.

(٢) البداية والنهاية ٨: ٣٤١.

(٣) أوردت اللقاء كاملاً لما له من أهمية فهو حوار بين خليفة تجاوز السبعين وهو مقبل على الموت، وأمه التي قاربت المئة وقد فقدت بصرها وليس لها إلا ولدها يرعاها. كان هذا اللقاء قبل مقتله بعشرة أيام (الطبري ٦: ١٨٨، الكامل ٤: ٢٣، تاريخ الخميس ٢: ٣٠٤).

خلودك في الدنيا؟، القتل أحسن. فقال: يا أماه أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني، قالت: يا بني إن الشاة لا تتألم بالسلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله. فقبل رأسها وقال: هذا رأيي والذي خرجت به دائباً إلى يومي هذا، ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها. وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله وأن تستحل حرماته، ولكني أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتني بصيرة، فانظري يا أماه فإني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر إلى الله فإن ابنك لم يتعهد إيثار منكر ولا عملاً بفاحشة ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في أمان ولم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي، اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسي ولكني أقوله تعزية لأمي حتى تسلو عني. فقالت أمه: لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً؛ إن تقدمتني احتسبتك، وإن ظفرت سررت بظفرك ـ اخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك. فقال: جزاك الله خيراً فلا تدعي الدعاء لي، قالت: لا أدعه لك أبداً فمن قتل على باطل، فقد قُتِلتَ على حق، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذاك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة وبره بأبيه وبي، اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت فأثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين، فتناول يديها ليقبلهما، فقالت: هذا وداع فلا تبعد، فقال لها: جئت مودعاً لأني أرى هذا آخر أيامي من الدنيا، قالت: امض على بصيرتك وادن

مني حتى أودعك، فدنا منها وعانقها وقبلها فوقعت يدها على الدرع، فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد، فقال: ما لبسته إلا لأشد متنك، قالت: فإنه لا يشد متني، فنزعها ثم درج كُميه وشد أسفل قميصه وجُبّة خز تحت أثناء السراويل وأدخلها أسفلها تحت المنطقة، وأمه تقول له: البس ثيابك مشمرة. فخرج وهو يقول:

إني إذا أعـرف يـومـي أصبر وإنمـا يعـرف يـومـه الحـر
إذ بعضهـم يعـرف ثـم ينكـر

فسمعته فقالت: تصبر إن شاء الله، أبواك أبو بكر والزبير وأمك صفية بنت عبد المطلب، فحمل على أهل الشام حملة منكرة فقتل منهم، ثم انكشف هو وأصحابه، وقال له بعض أصحابه: لو لحقت بموضع كذا... قال: بئس الشيخ أنا إذاً في الإسلام، لئن أوقعت قوماً فقتلوا ثم فررت عن مثل مصارعهم.

وبلغ ابن الزبير أثناء الحصار أن الحجاج قال لأصحابه يوماً: «والله إني لأخاف أن يهرب ابن الزبير، فإن هرب فما عذرنا عند خليفتنا؟» فتضاحك ابن الزبير لما سمع ذلك وقال: «إنه والله ظن بي ظنه بنفسه، إنه فرار في المواطن وأبوه قبله»[1]. ويقصد بذلك فرار الحجاج وأبيه يوسف لما كانا يقاتلان في جيش حبيش بن دلجة الذي أرسله مروان بن الحكم إلى المدينة سنة ٦٥ هـ. ودنا أهل الشام حتى

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٧: ٤٢٢.

امتلأت منهم الأبواب وكانوا يصيحون به: «يا ابن ذات النطاقين[1]» فيقول: «وتلك شكاة ظاهر عنك عارها».

وكان ابن الزبير يصول ويجول بين أبواب المسجد كأنه أسد في أجمة، فلا يجرؤ أن يقترب منه أحد، فغضب الحجاج من تقاعس رجاله في القتال، وترجل وأقبل يسوق الناس ويصمد بهم. واستغل عسكر الحجاج وقوف ابن الزبير للصلاة عند المقام، فهاجموا صاحب عَلَمه فقتلوه عند باب بني شيبة، وصار العلم بيد أصحاب الحجاج، فلما فرغ من صلاته تقدم فقاتل بغير عَلَم، وقاتل معه عبد الله بن مطيع الذي كان يقول[2]:

أنا الذي فررت يوم الحرة   والحر لا يفر إلا مرة

واليوم أجزي فَرَّة بكرة

وقاتل حتى قتل.

---

(١) يريدون تعييره بذلك، ولكن أسماء قالت له كما قالت للحجاج عند لقائه: بلغني أنك تقول له: يا ابن ذات النطاقين، أنا والله ذات النطاقين، أما أحدهما: فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ وطعام أبي بكر من الدواب، وأما الآخر: فنطاق المرأة التي لا تستغني عنه (صحيح مسلم ٧: ١٩١).

(٢) الكامل ٤: ٢٥.

اليوم الأخير:

في ليلة الثلاثاء، السابع عشر من جمادى الأولى، بات ابن الزبير يصلي طول ليلته، ثم جلس فاحتبى بحميلة سيفه، فأغفى ثم انتبه مع الفجر على عادته، وقال للمؤذن: أذن يا سعد، وتوضأ ثم صلى ركعتي سنة الفجر، ثم أقيمت الصلاة فصلى الفجر وقرأ سورة (ن) حرفاً حرفاً، ثم سلم فحمد الله وأثنى عليه، ثم توجه إلى من بقي حوله من أصحابه وقال لهم يشد من عزائمهم: اكشفوا وجوهكم حتى أنظر إليكم، وكانت عليهم المغافر والعمائم، ففعلوا، فقال: يا آل الزبير، لو طبتم بي نفساً عن أنفسكم، كنا أهل بيت من العرب اصطُلِمنا في الله، لم تصبنا زبّاء بتّة، أما بعد يا آل الزبير، فلا يَرُعكم وقع السيوف فإني لم أحضر موطناً قط إلا ارتثثت فيه من القتل، وما أجد من أدواء جراحها أشد مما أجد من ألم وقعها، صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم، لا أعلم امرأً كسر سيفه، واستبقى نفسه، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل، غضوا أبصاركم عن البارقة، وليشغل كل امرئ قِرْنَه ولا يلهينكم السؤال عني ولا تقولُنَّ: أين عبد الله بن الزبير؟ ألا من كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول احملوا على بركة الله، ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون، فرُمي بآجرة أصابته في وجهه، فأرعش لها ودمي وجهه

فلما وجد الدم على وجهه قال[1]:

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وصاحت مولاة لآل الزبير مجنونة؛ واأمير المؤمنيناه! وكانت رأته حيث هوى وهو يتمثل بهذه الأبيات[2]:

أسمـــاء يـــا أسمـــاء لا تبكينِ لم يبـــق إلا حسبـــي ودينـــي
وصـــارم لانـــت بـــه يمينـــي

وكان قتله يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين، وقيل جمادى الآخرة [3].

وصـل خبر مقتـل ابـن الـزبير إلى الحجـاج فسجـد وجـاء هـو وطارق بن عمرو حتى وقفا على ابن الزبير، فقال طارق: ما ولدت النساء أذكر من هذا، فقال الحجاج: أتمدح مخالف أمير المؤمنين؟، قال: نعم هو أعذر لنا ولولا هذا لما كان لنا عذر أنّا محاصروه منذ سبعة أشهر وهو في غير جند ولا حصن ولا منعة فينتصف منا، بل يفضل علينا. فلما بلغ كلامهما عبد الملك صوّب طارقاً.

ولما قُتل ابن الزبير كبَّر جند الحجاج فرحاً بقتله، فقال عبد الله بن

---

(١) الكامل ٤: ٢٥، الطبري ٦: ١٩٢، البداية والنهاية ٨: ٣٣١.
(٢) تاريخ مدينة دمشق ٤٦٩.
(٣) ابن خلكان ٣: ٧٤.

عمر: «انظروا إلى هؤلاء، ولقد كبر المسلمون فرحاً بولادته، وهؤلاء يكبرون فرحاً بقتله».

بعث الحجاج برأس ابن الزبير ورأس عبد الله بن صفوان ورأس عمارة بن عمرو بن حزم إلى المدينة، ثم ذهب بها إلى عبد الملك بن مروان، فبعث عبد الملك برأس ابن الزبير إلى عبد الله بن خازم الأسلمي وهو بخراسان والٍ من جهة ابن الزبير، وكتب إليه عبد الملك يدعوه إلى طاعته ويقول له: بايعني حتى أجعل لك خراسان طعمة سبع سنين، فقال ابن خازم لرسوله: لولا أن الرسل لا تُقتل لأمرت بضرب عنقك ولكن كُلْ كتاب صاحبك، فأكله. ثم أخذ الرأس فغسله وطيبه وكفنه ودفنه، وقيل إن عبد الملك بعث برأس عبد الله إلى آل الزبير بالمدينة فدفنوه مع جثته[1]. أما جثة ابن الزبير فقد صلبها الحجاج على الثنية اليمنى بالحجون، فجعلت قريش والناس يمرون عليه حتى مرَّ عبد الله بن عمر فوقف عليه وقال: «السلام عليك أبا خبيب (ثلاثاً). أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا (ثلاثاً). أما والله إن كنتَ ما علمتُ صواماً قواماً وصولاً للرحم، أما والله لأمة أنت شرها، لأمة سوء (يعني أهل الشام لأنهم كانوا يسمونه ملحداً منافقاً) ثم قال لأصحابه: أما والله ما زلت أخاف عليه مذ رأيته أعجبته بغلات معاوية الشهب، وكان معاوية قد حج فدخل

---

(١) ابن خلكان ٣: ٧٤.

المدينة وخلفه خمس عشرة بغلة شهباء، عليها رحايل الأرجوان، فيها الجواري عليهن الحلي والمعصفرات ففتنت الناس[1] . . .

وقد ارتجت مكة بالبكاء والعويل لمصير ابن الزبير بعد صلبه، فأمر الحجاج بالناس فجمعوا إلى المسجد، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أهل مكة، بلغني بكاؤكم واستفظاعكم قتل ابن الزبير، ألا وإن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة، ونازع فيها أهلها، وخلع طاعة الله، واستكنَّ إلى حرم الله، ولو كان شيء مانعاً للقضاء لمنعت آدم حرمةُ الجنة لأن الله تعالى خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته وأباحه جنته، فلما كان منه ما كان أخرجه من الجنة بخطيئته، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة فاذكروا الله يذكركم، ونزل»[2].

وأرسلت أسماء إلى الحجاج تقول: قاتلك الله على ماذا صلبته؟، فقال: استبقتُ أنا وهو إلى هذه الخشبة، وكانت له. فاستأذَنَتْه في تكفينه ودفنه، فأبى، ووكل بالخشبة من يحرسها. وكتب إلى عبد الملك يخبره بصلبه، فكتب إليه يلومه ويقول: ألا خليتَ بينه وبين أمه، فأذن لها الحجاج بدفنه[3].

---

(١) البداية والنهاية ٨: ٣٤١، تاريخ الخميس ٢: ٣٠٦.

(٢) ابن خلكان ٢: ٤٠.

(٣) كان الحجاج يمتدح نفسه عند الخليفة الوليد بن عبد الملك بأنه قاتل =

أخذت أسماء جثة ولدها بعدما تقطعت أوصاله، وحنطته وكفنته وصلت عليه وجعلت فيه شيئاً حين رأته يتفسخ إذا مسته، وماتت بعده بعشرين يوماً وقد بلغت المئة من العمر، وكانت خلافة عبد الله تسع سنين[١].

قيل إن الحجاج استحضر أسماء بعد مقتل ولدها، فلم تحضر، فأرسل إليها: لتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك، فلم تأتِه، فقام إليها، فلما حضر، قال لها: كيف رأيتني صنعت بعبد الله؟ قالت: رأيتك أفسدت على ابني دنياه وأفسد عليك آخرتك، أما إن رسول الله ﷺ حدثنا أن في ثقيف كذاباً ومبيراً، فأما الكذاب فقد رأيناه، وتعني المختار، وأما المبير فلا أخالك إلا إياه»[٢].

= ابن الزبير، وقد نفرت أم البنين زوجة الوليد من الحجاج لرأيه بالمرأة، فهاجمته ذات مرة بقولها: «إيه يا حجاج أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث؟، أما والله لولا أن الله علم أنك أهون خليقته ما ابتلاك برمي الكعبة وقتل ابن ذات النطاقين». (ابن خلكان ٢ : ٤٤).

(١) قال مصعب بن عبد الله: «حملته أسماء فدفنته بالمدينة في دار صفية بنت حُيَيّ، ثم زيدت دار صفية في المسجد، فابن الزبير مدفون في المسجد مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر». وذكر مسلم في صحيحه أن عبدالله ألقي في مقابر اليهود (الكامل ٤ : ٢٧، البداية والنهاية ٨: ٣٤٢، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٥٠٢).

(٢) صحيح مسلم ٧: ١٩١.

أهم أعماله

كان عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما تقياً ورعاً حريصاً على التمسك بالقرآن والسنة، مرجعاً في أصول التشريع فكان يقول لحجاج بيت الله الحرام: «يا معشر الحجاج، سلوني فعلينا كان التنزيل ونحن حضرنا التأويل». فتنسب إليه بعض الأعمال التي انفرد بها، أو كان أول من بدأ بأدائها. منها:

- عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أول من صف رجليه في الصلاة، فاقتدى به كثير من العباد، وكان مجتهداً[١].

- عبد الله أول من أمر بالحلف على المصحف[٢].

- عبد الله أول من استلم الركن الأسود من الأئمة قبل الصلاة وبعدها، فاستحسنت ذلك الولاة بعده فاتبعته[٣].

-ابن الزبير أول من ترخص في قطع شجر الحرم للبنيان حين ابتنى دوراً بقيقعان[٤].

---

(١) ابن عساكر ترجمة عبد الله بن الزبير ٤٠٨.
(٢) ابن خلكان ٥ : ٢١٠.
(٣) أخبار مكة ١ : ٣٤٥.
(٤) سيرة ابن هشام ١ : ١١٦.

- ابن الزبير أول من ربط الركن الأسود بالفضة لما أصابه الحريق[1].

- ابن الزبير أول من خلّق الكعبة، داخلها وخارجها وكساها القباطيّ[2].

- عبد الله أول من رفع قواعد البيت على أسس وقواعد إبراهيم؛ فلما احترقت الكعبة إثر حصار الحصين بن النمير لها وضربها بالمجانيق، وبعد أن أدبر جيش الحصين، دعا ابن الزبير وجوه الناس وأشرافهم وشاورهم في هدم الكعبة، فأشار عليه ناس غير كثير بهدمها، وأبى أكثر الناس هدمها. وكان أشدهم عليه إباءً، عبد الله بن عباس وقال له: «دعها على ما أقرها عليه رسول الله ﷺ، فإني أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها فلا تزال تهدم وتبنى فيتهاون الناس في حرمتها، ولكن أرقعها»، فقال ابن الزبير: «والله ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه، فكيف أرقع بيت الله سبحانه وأنا أنظر إليه ينقض من أعلاه إلى أسفله»، فأقام أياماً يشاور وينظر.

ولما دانت البلاد لعبد الله وحملت إليه الأموال من كل مكان، أجمع على هدمها وتجديد بنائها عام ٦٥ هـ، وكان يحب أن يكون هو الذي يردها على قواعد إبراهيم عليه السلام وعلى ما وصفه رسول الله ﷺ

(١) أخبار مكة ١: ٣٤٥.

(٢) مآثر الإنافة ١: ١٢٣.

لعائشة رضي الله عنها. وكان ابن الزبير يقول: «أشهد لسمعت عائشة رضي الله عنها تقول: قال رسول الله ﷺ: إن قومكِ استقصروا في بناء البيت، ولولا حداثة عهد قومك بالكفر، أعدت فيه ما تركوا منه، فإن بدا لقومك أن يبنوه فهلمي لأريكِ ما تركوا منه، فأراها سبعة أذرع، وقال رسول الله ﷺ: وجعلت لها بابين موضوعين على الأرض، باباً شرقياً يدخل الناس منه وباباً غربياً يخرج الناس منه».

فأمر ابن الزبير بهدمها، فما اجترأ أحد على ذلك، فأخذ المعول وجعل يهدمها بيديه ويرمي بحجارتها، فلما رأوا أنه لم يصبه شيء اجترؤوا فصعدوا يهدموها حتى كشفوا أساس إبراهيم. وقد وضع ابن الزبير البناء الجديد على ذلك الأساس الذي ورد على لسان عائشة رضي الله عنها وزاد في ارتفاعه ليتناسب مع زيادة المساحة[1]. لكن الحجاج بعد مقتل ابن الزبير استأذن الخليفة عبد الملك وأعاد البناء إلى ما كان عليه سابقاً.

ـ كان ابن الزبير أول من أدى عمرة الأكمة، فبعد الانتهاء من بناء الكعبة خرج عبد الله من مكة ماشياً حافياً معتمراً ومعه أهل مكة، فانتهى إلى أكمة عند مسجد عائشة وكان ذلك يوم ٢٧ رجب، وكان أهدى هو وأشراف مكة عدداً لا يحصى من البدن شكراً لله على ما وهبهم من المعونة والتيسير في بناء بيته الحرام على الصفة التي كان

(١) أخبار مكة ٢٠٤.

عليها مدة إبراهيم عليه السلام[1].

-ابن الزبير أول من ضرب الدنانير والدراهم في دولة الإسلام، فقد أمر أخاه مصعب والي العراق عام ٧٠ هـ بضرب النقود على ضرب الأكاسرة وكتب على أحد الوجهين (بركة الله) وعلى الوجه الآخر (اسم الله) ثم غيرها الحجاج، ويذكر الزركلي في الأعلام في ترجمة عبد الله بن الزبير، أن ابن الزبير كتب على أحد وجهي نقوده (محمد رسول الله) وعلى الوجه الآخر (أمر الله بالوفاء والعدل). وربما كانت هذه النقود التي ضربها مصعب قليلة كُسرت أو فُقدت بعد ولايته فأمر عبد الملك بضرب النقود بمواصفات جديدة[2].

* * *

(١) رحلة ابن جبير ١١٥، رحلة ابن بطوطة ١١١.

(٢) مآثر الإنافة ٢: ٢٣٠، ابن خلدون ١: ٣٢٣، البلاذري ٦٥٥، الأعلام.

الخاتمة

بعد دراسة سيرة عبد الله بن الزبير، نستعرض العوامل التي دفعته للسعي وراء الخلافة والظروف التي ساعدته للوصول إليها، ثم أسباب فشله بالاحتفاظ بها.

عوامل الزعامة عند ابن الزبير:

كان عبد الله رجلاً مؤمناً ورعاً تقياً عابداً، كما كان شجاعاً مقداماً أبياً يعد من الأبطال، وكان يعتقد أنه على حق وأنه يدعو للحق، ومن أجل هذا جاهد وقاتل. لكن ورعه وشجاعته لا يعني أن يكون كفؤاً وبارعاً بالسياسة والإدارة وتصريف أمور البلاد والعباد، بل كان ينقصه كثير من الصفات الأساسية في السياسة والإدارة، ومن خلال نشأته نلمس أسباب تولد حب الرئاسة والزعامة عنده[1].

نشأ عبد الله قريباً من بيت النبوة في أسرة عريقة كريمة، فاكتسب علماً واسعاً وسيرة حميدة وشجاعة كبيرة، وشب في فترة عصيبة وأزمة

---

(١) انظر ما جاء في نشأته.

سياسية ولّدت عنده الطمع في أن يرى أباه خليفة للمسلمين، فالزبير أحد أعضاء مجلس الشورى الذي عينه عمر بن الخطاب قبيل وفاته لانتخاب خليفة للمسلمين، فانتخبوا عثمان بن عفان ومن بعده علي بن أبي طالب، أما بقية أعضاء مجلس الشورى فقد توفي عبد الرحمن بن عوف قبل مقتل عثمان، ولم يكن لسعد بن أبي وقاص طموح سياسي، وقد وفد الزبير بن العوام في عهد عثمان إلى الكوفة، واستطاع أن يجمع حوله بعض الأنصار. والتف بعض الناس حول طلحة بن عبيد الله فكان له أنصار في البصرة، وبذلك كان عبد الله ابن أحد المرشحين للخلافة في مجلس الشورى.

وعندما حوصر الخليفة عثمان في داره بالمدينة جعل عبد الله أميراً على المدافعين عنه في الدار، مما زاد ثقته بنفسه ونمت عنده نزعة الحكم والإمارة، واعتبر نفسه مسؤولاً عن مصير عثمان، فأصر على الثأر له ودفع والده إلى ذلك دفعاً. ثم كان لوقعة الجمل أثر كبير في حياة ابن الزبير السياسية، فقد نجم عن هذه المعركة ظهور حزب جديد يؤيد حق الزبير وابنه بالخلافة، وازدادت مكانة عبد الله عند أصحابه بعد أن قدمته السيدة عائشة أم المؤمنين للصلاة بالناس، وصلى خلفه عدد من الصحابة في طريقهم إلى البصرة قبل وقعة الجمل، مما يدل على مكانته الدينية والسياسية كإمام للمسلمين.

وعندما خرج علي بن أبي طالب من المدينة يريد التصدي

لأصحاب الجمل بالعراق، جعل مركز الخلافة بالكوفة بعيداً عن الحجاز، وفي ذلك خسارة سياسية كبيرة للمدينة، لذلك اجتمع عدد من الصحابة قبيل مغادرة علي المدينة، ودخلوا عليه وتكلم عقبة بن عامر باسمهم مخاطباً الخليفة، فقال: «يا أمير المؤمنين إن الذي يفوتك من الصلاة في مسجد الرسول والسعي بين قبره ومنبره أعظم مما ترجوه في العراق»، فقال علي: «إن الأموال والرجال بالعراق»[1]، فحز ذلك في نفوس أهل الحجاز. فعندما ظهرت دعوة ابن الزبير وجعل مركز حكمه في مكة لقي تأييداً من أبناء البلاد لأنه بذلك يعيد لبلاد الحجاز مكانتها السياسية ومركزها القيادي.

انتهت معركة الجمل بمقتل زعماء المعارضة طلحة والزبير، وكان عبد الله وريثهما، ولكنه رغم طموحاته كان واقعياً، فلم يستمر في منافسة الخليفة الذي بايعه المسلمون، بل انسحب إلى المدينة، وتتبع صراع علي ومعاوية الذي انتهى بالتحكيم، عندها سعى معاوية لكسب وتأييد بعض رجال المعارضة، فأرسل في طلب عبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير ليحضرا التحكيم، فأجاباه كارهين. ويدل حرص معاوية على حضور ابن الزبير مفاوضات التحكيم على مكانته في المدينة. وبعد مقتل علي وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة، انفرد معاوية بن أبي سفيان بالسلطة، ولم يتصد ابن الزبير لمعاوية لا اعترافاً

(١) الأخبار الطوال ١٥٢.

بحقه بالخلافة، فهو أخذها بالقوة والحيلة والسياسة، وإنما لأن معاوية أكثر جنداً وأموالاً وقوة في بلاد الشام. ولما آلت الخلافة إلى يزيد بن معاوية امتنع عبد الله عن بيعته ولجأ إلى مكة، ولم يدّع الخلافة لنفسه حتى لا يكون في الدولة خليفتان، ولأنه كان يجد في الحسين بن علي بن أبي طالب أفضلية عليه، وأنصار الحسين كثيرون في الحجاز والعراق ومصر. ولما خلت ساحة المعارضة باستشهاد الحسين في كربلاء، بدأ عبد الله يجمع حوله الأنصار بمكة ويدعو لنفسه سراً، لأن يزيد في نظر عبد الله فتىً لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر، وتجاربه وخبراته محدودة وأخذ خلافته بالوراثة، بينما تجاوز ابن الزبير الستين وله مواقف عديدة تميزه عن يزيد سواء في نشأته أو جهاده، وكان عبد الله يعيب على يزيد شرب الخمر واللعب والتهاون بالدين وأظهر ثلمه ومنقصته(١).

جاءت الفرصة الذهبية لعبد الله للانفراد بالسلطة عندما وصله نبأ وفاة يزيد، ولم يكن معاوية بن يزيد راغباً بالخلافة أو مهيأً لها، فتنازل عنها على الملأ قائلاً لأهل دمشق: «تركت لكم أمركم فولوا عليكم من يصلح لكم». فجهر عبد الله بدعوته وطلب البيعة لنفسه بعد أن صار الناس بدون إمام لهم، ودانت له بلاد الحجاز والعراق ومصر واليمن وخراسان، وحق له أن يدافع عن خلافته ويحافظ

---

(١) تاريخ الخميس ٢: ٣٠٢.

عليها، ودعاه الحصين بن نمير السكوني لإهدار ما بينهما من دماء، وأن يرافقه إلى الشام ليأخذ له البيعة هناك، فأبى، فقال له الحصين: «قبح الله من يعدك بعد هذه داهياً قط أو أديباً، قد كنت أظن أن لك رأياً».

أصبح عبد الله خليفة للمسلمين دون منازع ودانت له البلاد كلها عدا الأردن، حتى مروان بن الحكم فكر بالتوجه إلى مكة ومبايعة ابن الزبير، لولا أن دبر حسان بن مالك الكلبي وعبيدالله بن زياد فتنة ألهبت المشاعر بدمشق، وأدت لمعركة مرج راهط التي تعتبر نقطة تحول سياسي وبدء حكم الأسرة المروانية.

رأى بعض الصحابة أن بيعة ابن الزبير لم تنعقد، لأنه لم يحضرها أهل العقد والحل[1] وكان معظمهم خارج مكة، حتى إن ابن عباس وابن عمر عدلا عن بيعته رغم أنهما كانا عند ابن الزبير. أما الذهبي فيرى خلافته صحيحة قائمة، ولا يعتبر مروان بن الحكم من أمراء المؤمنين بل هو باغ خارج على ابن الزبير ولا عهده لابنه عبد الملك بصحيح ولا تصح خلافته إلا بعد مقتل ابن الزبير[2]. وهذا رأي له ما يؤيد صحته، فعندما بويع عبد الله كان الناس بدون خليفة وكان المنصب شاغراً، وعندما بويع مروان كان هو الخليفة الثاني في الدولة.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١: ٢٧١.

(٢) تاريخ الخلفاء ٢٣٨، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٥٦.

ولم يعرف عن ابن الزبير أنه أرسل جيشاً ليأخذ البيعة بالقوة في أي مصر من الأمصار، بل أرسل أهل الكوفة والبصرة يطلبون منه إرسال ولاة عليهم بعد أن تحرروا من حكم ابن زياد. أما مروان بن الحكم فقد ثبَّت حكمه بمعركة مرج راهط وخرج على رأس حملة للسيطرة على مصر، ووجه الجيوش إلى العراق والحجاز، ولم تنته خلافة ابن الزبير بخلعه أو نقض بيعته بل بحصاره وقتله.

أسباب فشل ابن الزبير وزوال حكمه:

ينسب بعض المؤرخين فشل عبد الله لصفات كانت فيه ويلخصها علي بن يزيد بقوله: «كانت في عبد الله بن الزبير خلال مباينة لما حاول من الخلافة: بخل وضيق وسوء خلق ولجاج»[(١)].

أما في بخله فيقول الشاعر[(٢)]:

رأيت أبا بكر وربُّكَ غالبٌ على أمره يبغي الخلافة بالتمر

ويقال إنه استدعى عامله على وادي القرى ليحاسبه فقال له: «أكلت تمري وعصيت أمري، وجعل يضربه»[(٣)].

وأغفل عبد الله ناحية إعلامية هامة، فالشعراء كانوا أجهزة إعلام

---

(١) أنساب الأشراف ٥: ١٩٥.
(٢) أنساب الأشراف ٤: ١٩٤.
(٣) نفس المصدر.

واسعة الانتشار بالغة التأثير، فلم يحرص على كسبهم والإفادة من شعرهم ومديحهم، ولم يقفوا على بابه لبخله. ولا نجد سوى شاعر واحد استمر على إخلاصه لآل الزبير هو ابن قيس الرقيات، بينما كان الشعراء يزدحمون بالعشرات على أبواب قصور الأمويين لجزيل عطائهم وكرمهم. وخسر عبد الله تأييد أهل الكوفة لما أساء معاملتهم عندما وفدوا إلى مكة مع أخيه مصعب. وكان بخل ابن الزبير سبباً في ترك الناس له وانضمامهم إلى الحجاج عندما اشتد الحصار على مكة وقلت المواد فيها وارتفعت الأسعار، بينما كانت خزائن عبد الله ذاخرة بالمؤن[١].

وكان عبد الله جاهلاً بطباع الناس فلم تكن له حنكة ودهاء معاوية، ولم يتقن فن التعامل وكسب الأنصار، فقد أساء معاملة محمد بن الحنفية، وخسر تأييد أتباعه بل انقلبوا عليه وأرادوا قتاله. ويروى أن شخصاً جاء ابن الزبير فقال له: إن الناس على باب عبد الله بن عباس يطلبون العلم، وإن الناس على باب أخيه عبيد الله بن عباس يطلبون الطعام، فأحدهما يفقه الناس والآخر يطعم الطعام فما بقي لك مكرمة!، فدعا شخصاً وقال له: انطلق إلى ابني العباس رضي الله عنهم وقل لهما: يقول لكما أمير المؤمنين

---

(١) الكامل ٤ : ٢٣.

اخرجا عني وإلا فعلت ما فعلت، فخرجا إلى الطائف [1].

ومما يروى في سوء معاملته أن سَلْم بن زياد والي خراسان لما مات يزيد، التات (التف) الناس على سلم، فشخص من خراسان وأتى عبد الله بن الزبير في مكة، فأغرمه أربعة آلاف ألف درهم وحبسه، وكان سلم يقول: «ليتني أتيت الشام ولم آنف من خدمة أخي عبيد الله بن زياد، فكنت أغسل رجله ولم آت ابن الزبير» فلم يزل بمكة حتى كان حصارها من قبل الحجاج، فنقب السجن وصار إلى الحجاج ثم عبد الملك [2].

كان ينقصه الصبر والروية والتأني في إصدار الأحكام، فغلب عليه التسرع في إصدار الأحكام وكثيراً ما كانت ردود فعله سريعة وآنية. ويصدر أحكامه دون روية فيضطر لينقض قراراته بعد إدراك خطئه. فقد رفض طلب الحصين كلياً عندما عرض عليه الخلافة وأن يرافقه إلى بلاد الشام لأخذ البيعة، ثم أدرك عبد الله خطأه فأرسل إلى الحصين يقول: «أما أن أسير إلى الشام فلست فاعلاً وأكره الخروج من مكة ولكن بايعوا لي هناك فإني مؤمنكم وعادل فيكم».

كما تراجع في قراره بعدما كتب إلى واليه في المدينة عبد الله بن مطيع في نفي بني أمية عن المدينة إلى الشام، فقال له شيوخ ومشايخ

---

(١) أغاليط المؤرخين ١١٦.

(٢) فتوح البلدان ٥٨٢.

قريش: «بلغنا ما أمرت به من إلحاق بني أمية بالشام، وإنما بعثت عليك أفاعي لا يبلُّ سليمها، أمِثلُ مروان وبني أمية يشخصون إلى الشام؟ فوجه ابن الزبير كتاباً لاحقاً لعامله يأمره فيه بإقرار بني أمية بالمدينة، وكانوا قد غادروها، فأبوا العودة وقال عبد الملك للرسول: قل لأبي خبيب إنا نقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

اعتصامه بمكة:

عندما طلب يزيد من عامله بالمدينة أن يأخذ البيعة له من الناس، هرب الحسين وعبد الله إلى مكة، واعتبر عبد الله نفسه عائذاً ببيت الله ولازمه حتى بعد أن طلب البيعة لنفسه وجعل مكة عاصمة له، ظناً منه أن للكعبة حرمتها وأن أحداً لن يجرؤ على اقتحامها أو القتال فيها فيكون بمأمن من أعدائه، لكنه في الواقع غامر بحرمتها وأخطأ في تقديره فقد داهمته جيوش الأمويين ثلاث مرات وحاصروها مرتين، فاعتبر بعض الصحابة عبد الله مسؤولاً عن انتهاك حرمة البيت الحرام وسفك الدماء فيه، لأنه جعل مكة مدينة سياسية فعرض قدسيتها للخطر. ويعتقد ابن عمر أن قتل ابن الزبير وصلبه كان جزاء انتهاك حرمة البيت الحرام[2]. ولم تكن مكة تصلح ملاذاً لمثل عبد الله لأنها

---

(١) أنساب الأشراف ٤: ٤٤٢.

(٢) تفسير القرطبي ٥: ٣٩٧.

تقع بواد غير ذي زرع وبلاد الحجاز تفتقر للموارد الاقتصادية والقوة البشرية، وكان عبد الله يستعين لذلك بالعراق، فلما خسر العراق قلت موارده وانهار حكمه، وكان بمقدور الحجاج أن يأخذ مكة بالحصار لا بالحرب ولكنه تعجل الأمور. وكان جيش الحجاج قوياً مأجوراً لتوفر القوة البشرية والقدرة المالية في دولة عبد الملك، بينما اعتمد عبد الله في جمع جيشه وقوة دفاعه على التطوع والجهاد، فما لبث أن انضم رجاله بأعداد كبيرة إلى صفوف جيش الحجاج.

ولم يستفد عبد الله كثيراً من وجوده بمكة وموسمها السنوي للحج فكان يستغل وفود الحجاج ويشرح قضيته ويدعو لنفسه معتمداً على الحجة فقط دون الاعتماد على لغة المال. ومع ذلك تصدى عبد الملك لهذه الناحية فمنع أهل الشام من التوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج حتى لا يتأثروا بدعوة ابن الزبير ويبايعوه فهو خطيب فصيح ذو أثر في النفوس. فلما ضج الناس بالشام لانقطاع الحج، بنى عبد الملك عام ٦٦ هـ القبة على الصخرة والجامع الأقصى في القدس ليشغلهم عن الحج ويستعطف قلوبهم، فكانوا يقفون عند الصخرة ويطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة وينحرون يوم العيد(١)، فاستغل ابن الزبير هذا التصرف ليشنع بعبد الملك.

---

(١) مآثر الإنافة ١: ١٢٩، تاريخ الخميس ٢: ٣٠٤، البداية والنهاية ٨: ٢٨٠.

ولاة ابن الزبير:

الولاة رسل الخليفة إلى الأمصار ونوابه فيها، وبسياستهم وسيرتهم يكسب الخليفة بيعة الناس وتأييدهم أو إعراضهم عنه وثورتهم عليه، وكان ابن الزبير يتحرى انتقاء عماله من ذوي السيرة الحسنة ويزودهم بالإرشادات والنصائح لكنه لم يكن موفقاً بمعظم ولاته، فلا يوجد بينهم سياسي حكيم أو داعية بارع فكان يضطر لتغييرهم باستمرار، وطبعاً تعدد وكثرة الولاة بالولاية له أثر سيء على سير الأمور فيها، فقد توالى على إدارة اليمن في عهده أكثر من سبعة ولاة لم يحكم بعضهم أكثر من بضعة أشهر. وكذلك الحال في البصرة. ورغم أن عبد الله استعان بإخوته وأولاده في الولايات، لكنهم لم يكونوا على المستوى المطلوب، فابنه حمزة كان مسرفاً واضطر لعزله بعد أن ضاق به أهل البصرة وتذمروا من سلوكه. وأخوه مصعب، الرجل الثاني في الدولة، استعمله عبد الله على المدينة ثم أرسله إلى العراق، وكان قائداً فذاً شجاعاً وكريماً، قضى على ثورة المختار لكنه لم يكن سياسياً حكيماً، فقد ارتكب مجزرة القصر بالكوفة عندما قضى على المختار، والتي كان ضحيتها نحو ستة آلاف رجل، مما زاد في نقمة الشيعة عليه وعلى أخيه. وجابر بن الأسود والي المدينة ضرب الصحابي سعيد بن المسيب ستين سوطاً لأنه رفض بيعة ابن الزبير[١]

(١) الطبقات الكبرى ٥: ١٢٣، سير أعلام النبلاء ٤: ٢٢٩.

مما سبب نقمة أهل المدينة على أمير المؤمنين. وكان بعض الولاة يقبلون الرشوة مثل عمر بن عبد الرحمن بن الحرث المخزومي الذي رشاه المختار عندما قدم والياً من قبل ابن الزبير إلى الكوفة. وكان عبد الله بن مطيع بدوياً ساذجاً، وعبدالله بن يزيد أضاع فرصة كبيرة للتعاون مع التوابين عندما ظهروا بالكوفة ضد الأمويين. ووالي الموصل محمد بن الأشعث ما لبث أن انضم إلى صفوف المختار. وكان الضحاك بن قيس الفهري المسؤول عن أخذ البيعة لابن الزبير في دمشق يتردد بين الولاء لابن الزبير وبني أمية حتى أُحرج وحدد موقفه لأن تأييده لعبد الله لم يكن عن قناعة تامة بدعوته، بل نتيجة الصراع القبلي بين القيسيين واليمنيين فكان الضحاك يجد في عبد الله منافساً قوياً لمساعي حسان بن مالك بن بجدل الكلبي زعيم الكلبيين، الذي كان يسعى لتثبيت حكم أولاد يزيد بدمشق. كما أن لغة المال التي اعتمدها عبد الملك في حربه مع مصعب بالعراق، جعلت عدداً من زعماء جيش مصعب ينفضون من حوله، ولجأ الحجاج بن يوسف الثقفي للإغراء المادي في حصاره لعبد الله في مكة المكرمة فانضم إليه كثيرون من جيش عبد الله.

ورغم الاعتراف بصدق وإخلاص وورع بعض الولاة فإن قسماً آخر منهم خانوا الأمانة وأساؤوا للرعية مما دفع الشاعر ابن همام لنظم

قصيدة مطولة يصف بها سيرة وسلوك بعض موظفي ابن الزبير بالكوفة، ومما جاء فيها قوله[1]:

يـا ابـن الـزبير أمير المـؤمنين أَلَمَ ... يبلغك ما فعل العُمّال بالعمل
باعوا التُجّار طعام الأرض واقتسموا ... صُلْب الخراج شحاحاً قسمة النَفَل
وقدموا لك شيخاً كاذباً خذلاً ... مهما يَقُل لكَ شيخ كاذبٌ يَقُل
إنا منينا بضب من بني خلف ... يرى الخيانة شرب الماء بالعسل
كانوا أتونا رجالاً لا ركاب لهم ... فأصبحوا اليوم أهل الخيل والإبل
لـن يعتبـوك ولم يَعـلُ هـامهـم ... ضرب السياط وشدٌ بعد في الجمل

يضاف إلى ما ذكرنا أن عبد الله لما أعلن خلافته وطلب البيعة لنفسه كان حديث عهد بالإدارة رغم تقدمه بالسن، وليس له رصيد سياسي يعتمد عليه ولا تكتل بشري كبير يعتد به، فهو يريد أن يبني دولة حديثة ليس لها قواعد وأصول سابقة ثابتة، بل كان يستفيد من نقمة المعارضة، وخاصة أهل الحجاز، على حكم الأمويين وسياستهم وسيرتهم.

بينما كانت خلافة معاوية، مؤسس الدولة الأموية، امتداداً لإمارته في دمشق التي استمرت عشرين عاماً، كسب خلالها ثقة أهل الشام وتأييدهم، يظهر ذلك في وصيّته لابنه يزيد إذ يقول: «. . . . وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شيء

---

(١) أنساب الأشراف ٥: ١٩١.

من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أُخذوا بغير أخلاقهم»[1].

وكان عبد الله يدرك ضعف موقفه لقلة أنصاره وعدم الثقة ببعضهم، فقال لأخيه مصعب لما وفد عليه إلى مكة ومعه أشراف الكوفة: «لوددت أني أصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم، عشرة من هؤلاء برجل من أهل الشام». فلم يتوفر لعبد الله ما توفر للأمويين، ولم يكن عبد الله نداً سياسياً لمعاوية وعبد الملك، فانهارت دولته بعد تسع سنين من قيامها، واعتبرها عدد من المؤرخين فتنة عابرة في تاريخ الدولة الأموية.



(١) الطبري ٥: ٣٢٣، الكامل ٣: ٢٥٩.

الملحق
أحاديث رواها ابن الزبير

عن أبي خُبيب عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: «لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني فقمت إلى جنبه، فقال: يا بني إنه لا يُقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم[1]، وإني لا أراني إلا سأُقتل اليوم مظلوماً، وإن من أكبر همي لَدَيني، أفرأيت دَيننا يبقي من مالنا شيئاً، ثم قال: يا بني بع مالنا واقض ديني، وأوصى بالثلث، وثُلُثِه لبنيه - يعني لبني عبد الله بن الزبير ثلث الثلث - قال: فإن فضل من مالنا بعد قضاء الدين شيء فثلثه لبنيك.

قال هشام[2]: وكان بعض وَلَد عبد الله قد وازى بعض بني الزبير، خبيب وعباد، وله يومئذ تسعة بنين وتسع بنات.

قال عبد الله: فجعل يوصيني بدَينه ويقول: يا بُني إن عجزت

---

(١) قال الزبير ذلك لأن المقاتلين إما أن يكون منهم صحابي متأوِّل فهو مظلوم، وإما غير صحابي قاتلَ لأجل الدنيا فهو ظالم (رياض الصالحين ١٥٧).

(٢) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام.

عن شيء منه فاستعن عليه بمولاي. قال: فوالله ما دَريتُ ما أراد حتى قلت: يا أبتِ من مولاك؟ قال: الله، قال: فوالله ما وقعت في كربة من دَينهِ إلا قلتُ: يا مولى الزبير اقض عنه دَينه، فيقضيه.

قال: فقُتل الزبير ولم يَدَع ديناراً ولا درهماً إلا أَرَضين، منها الغابة[1] وإحدى عَشْرَة داراً بالمدينة، ودارين بالبصرة، وداراً بالكوفة وداراً بمصر، قال: إنما كان دَينُهُ الذي كان عليه أن الرجل كان يأتيه بالمال، فيستودعه إياه، فيقول الزبير: لا، ولكن هو سَلَف إني أخشى عليه الضيعة، وما ولي إمارة قط ولا جباية ولا خراجاً ولا شيئاً إلا أن يكون في غزو مع رسول الله ﷺ أو مع أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

قال عبد الله: فَحَسَبتُ ما كان عليه من الدين فوجدته ألفي ألف ومئتي ألف! فلقي حكيم بن حِزام عبد الله بن الزبير فقال: يا ابن أخي كم على أخي من الدين؟ فكتمته وقلت: مئة ألف، فقال حكيم: والله ما أرى أموالكم تسع هذه! فقال عبد الله: أرأيتك إن كانت ألف ألف ومئتي ألف؟ قال: ما أراكم تطيقون هذا، فإن عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي.

قال: وكان الزبير قد اشترى الغابة بسبعين ومئة ألف، فباعها عبد الله بألف ألف وست مئة ألف، ثم قام فقال: من كان له على

---

(١) الغابة: أرض شهيرة من عوالي المدينة (رياض الصالحين ١٥٧).

الزبير دين فليوافنا بالغابة، فأتاه عبد الله بن جعفر، وكان له على الزبير أربع مئة ألف، فقال لعبدالله: إن شئتم تركتها لكم؟ قال عبد الله: لا، قال: فإن شئتم جعلتموها فيما تؤخرون إن أخرتم، فقال عبد الله: لا، قال: فاقطعوا لي قطعة، قال عبد الله: لك من ها هنا إلى ها هنا. فباع عبد الله منها، فقضى عنه دينه، وأوفاه، وبقي منها أربعة أسهم ونصف، فقدم على معاوية(بن أبي سفيان) وعنده عمرو بن عثمان، والمنذر بن الزبير، وابن زَمْعة، فقال له معاوية: كم قَوّمتَ الغابة؟ قال: كل سهم بمئة ألف، قال: كم بقي منها؟ قال: أربعة أسهم ونصف، قال المنذر بن الزبير، قد أخذت منها سهماً بمئة ألف، قال عمرو بن عثمان، قد أخذت منها سهماً بمئة ألف، وقال ابن زمعة: قد أخذتُ سهماً بمئة ألف، فقال معاوية: كم بقي؟ فقال: سهم ونصف سهم، قال: قد أخذته بخمسين ومئة ألف.

وقال: وباع عبد الله بن جعفر نصيبه من معاوية بست مئة ألف.

فلما فرغ ابن الزبير من قضاء دَينه قال بنو الزبير: اقسم بيننا ميراثنا. قال: والله لا أقْسِمُ بينكم حتى أُنادي بالموسم أربع سنين: ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه، فجعل كل سنة ينادي في الموسم، فلما مضى أربع سنين قسم بينهم ورفع الثلث، وكان للزبير

أربع نسوة، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومئتا ألف فجميع ماله خمسون ألف ألف ومئتا ألف [1].

أخرج الأئمة الستة عن عبد الله بن الزبير قال: «خاصم الزبير رجلاً من الأنصار في شراح الحرة، فقال النبي ﷺ: اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك، فقال الأنصاري: يا رسول الله: أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجهه ثم قال: اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجُدُر ثم أرسل الماء إلى جارك، واستوعب الزبير حقه، وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة، قال الزبير: ما أحسب هذه الآيات إلا نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [2] [النساء: ٦٥].

أخرج النسائي عن عبد الله بن الزبير قال: «أنزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾» [3] [المائدة: ٨٣].

أخرج الطبراني عن عبد الله بن الزبير قال: «مر رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه يضحكون فقال: أتضحكون وذِكْر الجنة بين أيديكم؟! فنزلت آية ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾

---

(١) رواه البخاري (رياض الصالحين ١٥٨).
(٢) تفسير وبيان مفردات القرآن ص ١٤١ في أسباب النزول.
(٣) نفس المصدر ص ١٩٨.

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾»[1] [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠].

أخرج أحمد والبزار والحاكم وصححه عن عبد الله بن الزبير قال: «قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر، وكان أبو بكر طلقها في الجاهلية، فقدمت على ابنتها بهدايا فأبت أسماء أن تقبل منها أو تدخلها منزلها حتى أرسلت إلى عائشة، أن سلي عن هذا رسول الله ﷺ فأخبرته، فأمرها أن تقبل هداياها وتدخلها منزلها، فأنزل الله ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾»[2] [الممتحنة: ٨].

أخرج البخاري وغيره من طريق ابن جريج عن ابن مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: «أمِّر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، وقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ

---

(١) تفسير وبيان مفردات القرآن ص ٢٨٣ في أسباب النزول.
(٢) نفس المصدر ٤٨٧.

ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾»[1] [االحجرات: ١-٥].

حدثنا أبو الوليد قال: حدثنا شعبة، عن جامع بن شداد، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه قال: قلتُ للزبير إني لا أسمعك تُحدّث عن رسول الله ﷺ كما يُحدث فلان وفلان؟ قال: أَمَا إني لم أُفارِقْه، ولكن سمعتُه يقول: «من كَذَبَ علي فليتبوأ مقعده من النار»[2].

حدثنا عبد الله بن موسى، عن إسرائيل عن أبي إسحق عن الأسود قال: قال لي ابن الزبير: «كانت عائشة تُسر إليك كثيراً، فما حدثتك في الكعبة؟ قلتُ: قالت لي: قال النبي ﷺ: «يا عائشة لولا قومُكِ حديثٌ عهدهم - قال ابن الزبير - بِكُفرٍ. لنقضت الكعبة، فجعلت لها بابين، باب يدخل الناس وباب يخرجون». ففعله ابن الزبير[3].

حدثني الحسن بن محمد، هو الزعفراني، حدثنا عُبيدة بن حُمَيد، حدثني عبد العزيز بن رُفيع قال: «رأيت عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما يطوف بعد الفجر، ويصلي ركعتين. قال عبد العزيز: ورأيت

(١) تفسير وبيان مفردات القرآن ص ٤٤٥ في أسباب النزول.
(٢) حدثه البخاري في باب العلم رقم الحديث ١٠٧.
(٣) حدثه البخاري في باب العلم رقم الحديث ١٢٦.

عبد الله بن الزبير يصلي ركعتين بعد العصر ويُخبر أن عائشة رضي الله عنها حدثته أن النبي ﷺ لم يدخل بيتها إلا صلاهما»[1].

حدثنا عبد الله بن يوسف: أخبرنا مالِك، عن هشام بن عروة، عن عبد الله بن الزبير، عن سفيان بن أبي زهير رضي الله عنه أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تُفتح اليمن، فيأتي قوم يَبُسّون[2]، فيتحملون بأهليهم ومَن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. وتُفتح الشَأْم، فيأتي قوم يُبِسّون فيتحملون بأهليهم ومَن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح العراق، فيأتي قوم يُبِسّون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»[3].

حدثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا يزيد بن زُريع وحُميد بن الأسود، عن حبيب بن الشهيد، عن ابن أبي مُلَيكة: قال ابن الزبير لابن جعفر رضي الله عنهم: «أتذكر إذ تَلَقَّينا رسول الله ﷺ أنا وأنتَ وابن عباس؟ قال: نعم فحملنا وتركك»[4].

حدثنا سليمان بن حرب: أخبرنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن

---

(١) حدثه البخاري في باب الحج رقم الحديث ١٥٥٠.
(٢) يبسون: يسوقون إبلهم ودوابهم راحلين من المدينة.
(٣) حدثه البخاري في باب فضائل المدينة حديث ١٧٧٦.
(٤) حدثه البخاري في باب الجهاد حديث ٢٩١٦.

عبد الله بن أبي مُليكة قال: «كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير في الجَدِّ، فقال: أما الذي قال رسول الله ﷺ «لو كنت متخذاً من هذه الأمة خليلاً لاتخذته». أنزله أباً، يعني أبا بكر»[1].

حدثنا أحمد بن محمد: أخبرنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير قال: «كنتُ يوم الأحزاب جُعِلتُ أنا وعمر بن أبي سلمة في النساء، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قُريظة مرتين أو ثلاثاً، فلما رجعتُ قلت: يا أبتِ رأيتك تختَلِف؟ قال: أَوَهَل رأيتني يا بني؟ قلتُ: نعم، قال: كان رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يأتِ بني قريظة فيأتِيَني بخبرهم». فانطلقت، فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ أبوَيه فقال: «فداك أبي وأمي»[2].

حدثني أميةُ بن بسطام: حدثنا يزيد بن زُريع، عن حَبيب، عن ابن أبي مُليكة: قال ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. قال: قد نَسَخَتْها الآية الأخرى، فلِمَ تكتُبُها؟ أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا أُغير شيئاً منه من مكانه»[3].

حدثنا يحيى: حدثنا وكيع، عن هشام، عن أبيه، عن عبد الله بن

---

(١) حدثه البخاري في فضائل الصحابة حديث ٣٤٥٨.

(٢) حدثه البخاري في فضائل الصحابة حديث ٣٥١٥.

(٣) حدثه البخاري في باب التفسير / البقرة حديث ٤٢٥٦.

الزبير: «﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. قال: ما أنزله الله إلا في أخلاق الناس» وقال عبد الله بن برّاد، حدثنا أبو أسامة: حدثنا هشام، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير قال: «أمر اللهُ نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس، أو كما قال»(١).

حدثنا سليمان بن حرب: حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت قال: سمعت ابن الزبير يخطب يقول: قال محمد ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»(٢).

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما: أنه كان يقول دَبُرَ كل صلاة، حين يسلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النّعْمَة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»(٣).

عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه؛ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قعد في الصلاة، جعل قدمه اليسرى بين فخِذِه وساقه. وفرش قدمه اليُمنى. ووضع يده اليُسرى على ركبته اليسرى. ووضع يده اليمنى على فخذه اليمنى. وأشار بإصبعه»(٤).

---

(١) حدثه البخاري في باب التفسير / الأعراف حديث ٤٣٦٧.

(٢) حدثه البخاري في اللباس حديث ٥٤٩٥.

(٣) رواه مسلم (رياض الصالحين ٥٦١).

(٤) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

عن زرعة بن عبد الرحمن قال: سمعت ابن الزبير يقول: «صف القدمين ووضع اليد على اليد من السنة»[١].

عن مصعب بن ثابت عن عبد الله بن الزبير؛ قال: أفطر رسول الله ﷺ عند سعد بن معاذ فقال: «أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة»[٢].

. . . حدثنا مغيث بن شمس قال: «صليت مع عبد الله بن الزبير الصبح بغلس فلما سلم أقبلت على ابن عمر فقلت: ما هذه الصلاة؟ قال: هذه صلاتنا كانت مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما طعن عمر أسفر بها عثمان»[٣].

عن عباس بن سهل بن سعد قال: سمعت ابن الزبير على المنبر بمكة في خطبته يقول: يا أيها الناس، إن النبي ﷺ كان يقول: «لو أن ابن آدم أعطي وادياً ملأً من ذهب أحب إليه ثانياً، ولو أُعطي ثانياً أحب إليه ثالثا، ولا يسد جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[٤].

---

(١) سنن أبي داود ج١ ص ٢٥٩.
(٢) سنن ابن ماجه مج١ ص ٥٥٦.
(٣) سنن ابن ماجه مج١ ص ٢٢١.
(٤) سنن البخاري ج٥ ص٢٣٦٥.

عن عبد الله بن الزبير، عن النبي ﷺ قال: «لا تحرم المصة والمصتان»[1]

عن عروة بن الزبير أن عبد الله بن الزبير قام بمكة فقال: «إن أناساً أعمى قلوبهم كما أعمى أبصارهم يفتون بالمتعة، يعرض برجل فناداه فقال: إنك لجلف جاف فلعمري لقد كانت المتعة تفعل على عهد إمام المتقين (يريد رسول الله ﷺ) فقال له ابن الزبير، فجرب بنفسك فوالله لئن فعلتها لأرجمنك بأحجارك»[2].

سُئل عبد الله بن الزبير عن نبيذ الجر قال: نهانا عنه رسول الله ﷺ[3].

وعن عبد الله بن الزبير أنه كان يقول: «حزب رسول الله ﷺ عام خيبر للزبير بن العوام أربعة أسهم: سهماً للزبير، وسهماً لذي القربى لصفية بنت عبد المطلب أم الزبير، وسهمين للفرس»[4].

عن عبد الله بن الزبير قال: «جاء رجل من خثعم إلى رسول الله ﷺ فقال: أبي شيخ كبير لا يستطيع الركوب وأدركته فريضة الله في الحج، فهل يجزىء أن أحج عنه؟، قال: أنت أكبر

---

(١) سنن النسائي ج٤ ص ٦٩٦.
(٢) صحيح مسلم ج٣ـ٤ ص ١٣٣ـ١٣٤.
(٣) سنن النسائي ج٧ ص ٣٠٢.
(٤) سنن النسائي ج٥ ص ٢٢٨.

ولده، قال: نعم، قال: أرأيت لو كان عليه دين أكنت تقضيه؟ قال: نعم، قال: فحج عنه»[1].

حدثنا أبو عاصم عن ابن جريج قال: قال عطاء: «اجتمع يوم جمعة ويوم فطر على عهد ابن الزبير فقال: عيدان اجتمعا في يوم واحد فجمعهما جميعاً، فصلاهما ركعتين بكرة لم يزد عليهما حتى صلى العصر»[2].

عن عبد الله بن الزبير قال: «قضى رسول الله ﷺ أن الخصمين يقعدان بين يدي الحكم»[3].

عن عبد الله بن الزبير: أن رسول الله ﷺ قال: «أيما رجل أعمر رجلاً عمرى له ولعقبه فهي له ولمن يرثه من عقبه من وَرَثَة»[4].

* * *

(١) سنن النسائي ج٥ ص١١٧.
(٢) سنن أبي داود ج١ ص٣٤٩.
(٣) سنن أبي داود ج٢ ص٣٢٦.
(٤) كتاب السنن الكبرى للنسائي ج٤ ص١٣٢.

المـــراجع

آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا بن محمد القزويني، دار صادر، بيروت.

الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، دار المسيرة، بيروت.

أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، محمد الأزرقي، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٣.

الاستيعاب في أسماء الأصحاب (بهامش كتاب الإصابة)، يوسف النمري القرطبي.

الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي، لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٣٤.

أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، سعيد الأفغاني، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٣٧.

الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت ١٩٧٨.

الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٩.

أغاليط المؤرخين، محمد أبو اليسر عابدين، دمشق ١٩٨٩.

الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، مؤسسة عز الدين، بيروت.

الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري محمد بن عبد الله، مؤسسة الحلبي وشركاه، بيروت.

أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري، مكتبة المثنى، بغداد.

البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٨٥ .

بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تاج الدين عبد الباقي عبد المجيد اليماني، دار الحكمة اليمانية، صنعاء.

تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، دار المعارف، مصر.

تاريخ الإسلام السياسي، حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، مصر ١٩٥٣.

التاريخ الإسلامي (المعروف بتاريخ المظفري)، شهاب الدين إبراهيم الحموي، دار الثقافة للنشر، القاهرة ١٩٨٥ .

تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، دار الجيل، بيروت ١٩٨٨ .

تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري، مؤسسة شعبان بيروت.

تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري، دار المعارف، مصر.

تاريخ شمال إفريقيا، عبد العزيز الثعالبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٧ .

تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، علي بن عبد الله الشافعي، مجمع اللغة العربية.

تاريخ اليعقوبي، أحمد بن واضح الكاتب العباسي، دار صادر ـ بيروت، ١٩٦٠ .

تفسير وبيان مفردات القرآن، محمد حسن الحمصي، دار الرشيد ـ دمشق.

التنبيه والإشراف، علي بن الحسين المسعودي، القاهرة.

تهذيب الأسماء واللغات، يحيى بن شرف النووي، دار الكتب العلمية، بيروت.

تهذيب تاريخ دمشق الكبير، عبد القادر بدران.

الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٩٨٥ .

حضارة الإسلام في دار السلام، جميل نخلة المدور .

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم محمد الأصفهاني، دار الفكر، دمشق .

الدولة العربية وسقوطها، يوليوس ولهاوزن، مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٦ .

ديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون)، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر، بيروت ١٩٨١ .

ذكر أخبار أصبهان، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، مطبعة بريل، ليدن ١٩٣٤ .

رحلة ابن بطوطة، ابن بطوطة، دار الكتاب اللبناني .

رحلة ابن جبير، ابن جبير، دار المعارف، بيروت .

رياض الصالحين، يحيى بن شرف الدين النووي الدمشقي، دار الفكر - دمشق ١٩٨٧ .

سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة .

السيرة النبوية، ابن هشام، دار الجيل، بيروت ١٩٨٧ .

صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق - بيروت .

صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الطباعة العامرة مصر ١٣٢٩ هـ .

صفوة الصفوة، جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٩.

الطبقات الكبرى، ابن سعد، دار صادر، بيروت.

عائشة والسياسة، سعيد الأفغاني، دار الفكر بيروت ١٩٧١.

عبد الله بن الزبير، علي حسني الخربطلي، المؤسسة المصرية للكتاب (سلسلة أعلام العرب).

عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، محمد ضياء الدين الريس، القاهرة ١٩٦٩.

العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، محمد الحسني الفاسي المكي، مؤسسة الرسالة ١٩٨٦.

العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، دار الفكر.

العواصم من القواصم، أبو بكر بن العربي المالكي، مكتبة السنة، القاهرة ١٤٠٨ هـ.

غريب الحديث، ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، مطبعة العاني، بغداد ١٩٧٧.

الفتنة ووقعة الجمل، سيف بن عمر الضبي الأسدي.

فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري.

القطوف اليانعة، عبد الله أنيس الطباع، دار ابن زيدون، بيروت ١٩٨٦.

الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٦.

مآثر الإنافة في معالم الخلافة، أحمد القلقشندي، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت ١٩٦٤.

مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي بن الحسين بن علي المسعودي، دار الفكر.

مصر في فجر الإسلام، سيده كاشف، القاهرة.

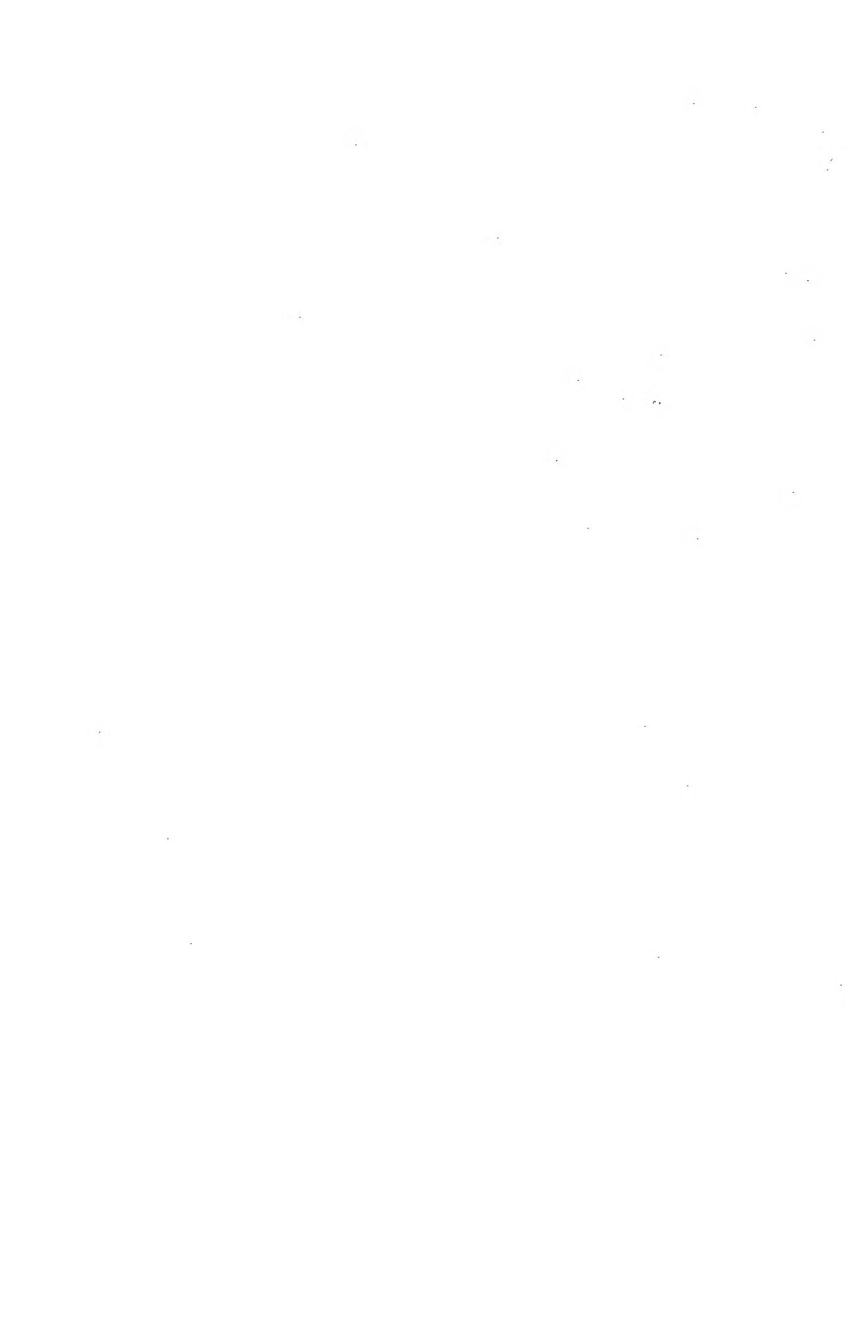
الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، دار المعارف، بيروت.

موسوعة التاريخ الإسلامي، أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨٨.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، دار صادر، بيروت.

وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري، المؤسسة العربية الحديثة ومكتبة الخانجي القاهرة ١٩٨١.

* * *



الفهرس

هذا الرجل ٥
المقدمة ٧
عصر ابن الزبير ١١
مولده ونشأته ١٩
نسبه وأسرته ٢١
صفاته وأخلاقه ٢٧
- حليته ٢٧
- عبادته ٢٧
- شجاعته ٣١
جهاده ٤١
الدفاع عن عثمان بن عفان ٤٧
وقعة الجمل ٥١
ابن الزبير والخلافة الأموية ٦٧
- تأسيس الدولة الأموية ٦٧
- سياسة معاوية ٦٩
- الحياة السياسية في عهد معاوية ٧٠

- معاوية وابن الزبير ٧٥
- البيعة ليزيد بولاية العهد ٨٠
خلافة يزيد ٨٧
- وصية معاوية ٨٧
- رفض البيعة ووقعة كربلاء ٨٩
- عبد الله يدعو لنفسه ٩٤
- وقعة الحرة ١٠٥
- الحصار الأول لمكة المكرمة ١٠٩
خلافة عبد الله بن الزبير ١١٣
- وفاة يزيد ١١٣
- بين عبد الله والحصين ١١٣
- عرض وتحليل ١١٤
- خلافة معاوية الثاني ١١٨
- بيعة الأمصار لابن الزبير ١١٩
- خلافة مروان بن الحكم ١٢٦
- مؤتمر الجابية ١٢٨
- معركة مرج راهط ١٢٩
- الاستيلاء على مصر ١٣٠
- الحملة إلى العراق ١٣٢
- الحملة إلى الحجاز ١٣٣

أحزاب المعارضة ١٣٧
- عبد الله والشيعة ١٣٧
- الشيعة في العراق ١٣٩
- ابن الزبير والمختار ١٤١
- بيعة المختار بالكوفة ١٤٥
- ثورة الكوفة ١٤٨
- صراع ابن الزبير والمختار ١٥٠
- نهاية المختار ١٥٣
- عبد الله وابن الحنفية ١٥٨
- عبد الله والخوارج ١٦٤
- مصعب في العراق ١٧١
صراع بين خليفتين ١٧٥
- خلافة عبد الملك بن مروان ١٧٥
- الاستيلاء على العراق ١٧٨
- حملات الحجاز ١٨٥
نهاية ابن الزبير ١٨٧
- الحصار الثاني لمكة المكرمة ١٨٨
- اليوم الأخير ١٩٤
أهم أعماله ١٩٩
الخاتمة ٢٠٣

ـ عوامل الزعامة عند ابن الزبير ٢٠٣
ـ أسباب فشل ابن الزبير وزوال حكمه ٢٠٨
ـ اعتصامه بمكة ٢١١
ـ ولاة ابن الزبير ٢١٣
الملحق : أحاديث رواها ابن الزبير ٢١٧
المراجع ٢٢٩
الفهرس ٢٣٥

* * *